في تصحيح المفاهيم

تجديد الدين ... في ضوء السنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»(١).

ذكره أبو داود أول كتاب الملاحم: باب ما يذكر في قرن المئة(٢).

سند الحديث:

قال: حدثنا سليمان بن داود المهري: أخبرنا ابن وهب: أخبرني سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة ـ فيما أعلم ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث ...» الحديث.

قال أبو داود: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني، لم يَجُزْ به شراحيل. أي: أوقفه عليه.

قال المنذري في مختصر السنن: رقم (٤١٢٣):

وعبد الرحمن بن شريح الإسكندراني، ثقة، اتفق البخاري ومسلم على

---

(١) رواه أبو داود في سننه، برقم: (٤٢٧٠)، والحاكم في (مستدركه) في الفتن ٥٢٢/٤، والبيهقي في (معرفة السنن والآثار) (ص٥٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٦١/٢، كما ذكره الألباني في سلسلة (الصحيحة) رقم (٥٩٩)، وعزاه أيضاً إلى أبي عمرو الداني في الفتن، وفي صحيح الجامع الصغير (١٨٧٤) ط٢. المكتب الإسلامي، والهروي في (ذم الكلام)، وفي تعليق الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي على «بذل المجهود في حل أبي داود» نقل عن مولانا عبد الحي: أن الحديث أخرجه أيضاً الحسن بن سفيان في مسنده والبزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية ... وغيرهم.

(٢) قال في (بذل المجهود) ٢٠١/١٧: أي أن المئة سنة قرن، فيحدث فيه المحدثات فيبعث على رأسها المجدد.

الاحتجاج بحديثه، وقد عضله[1]. يعني: أسقط راويين من سنده: أبا علقمة، وأبا هريرة؛ فالحديث المعضل هو الذي سقط من إسناده راويان على التوالي.

وقول أبي داود هذا لايعلل الحديث، لأن عبد الرحمن إذا كان قد عضله، فإن سعيد ابن أبي أيوب قد وصله وأسنده، وهي زيادة من ثقة فتقبل، كما هو مقرر في أصول الحديث.

وسند الحديث صحيح، رجاله ثقات، رجال مسلم؛ ولذا صححه غير واحد، ورمز السيوطي لصحته في (الجامع الصغير)، وأقره عليه شارحه العلامة المناوي[2]، وذكر أن الحاكم صححه[3]، وقال: قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة أحاديثه الصحيحة رقم (٥٥٩)[4].

كلمة عن موضوع الحديث:

هذا الحديث الشريف يتكون من جملة خبرية واحدة، تتضمن نبأ من أنباء الغيب، أخبر به من لاينطق عن الهوى، وهو لايعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿**عالمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبِهِ أحداً ۞ إلاَّ مَنِ ارتَضى مِن رَّسولٍ ...**﴾[الجن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) مختصر السنن للمنذري ٦/١٦٣ط. المكتبة الأثرية بلاهور ـ باكستان، مصورة عن طبعة السنة المحمدية بمصر. بتحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) انظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» ٢/٢٨٢.

(٣) ليس في المستدرك: أنه صححه، وإنما سكت عليه. قال الألباني: فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرك. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/١٥١، الحديث (٥٥٩) ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.

(٤) انظر: المصدر السابق.

وقد رواه أبو داود في كتاب (الملاحم) من سننه، والملاحم جمع ملحمة، ويراد بها: المعارك التي تقع في المستقبل بين المسلمين وأعدائهم، مأخوذة من التحام الجيشين المتقابلين، مثل ما نبأ به ﷺ من قتال المسلمين للترك والروم واليهود وغيرهم.

وقد تحقق بعض ما أخبر به ﷺ، ولا زال البعض في ضمير الغيب، ونحن نوقن أنه واقع لا محالة في حينه الذي قدره الله، فما كذب محمد ﷺ يوماً، ولا كُذِب ﷺ.

وموضوع الملاحم يذكر عادة مع موضوعين آخرين هما: الفتن، وأشراط الساعة، وقد تضم هذه كلها، وقد يفرد بعضها عن بعض. وكلها تتحدث عن المستقبل، وما يجري الله فيه من أحداث.

والحقيقة أن هذه الموضوعات: الفتن، والملاحم، وأشراط الساعة، من الأشياء التي يجب على أهل البصيرة من العلماء أن يوسعوها بحثاً، ولا يدعوها للمتعجلين الذين يفرون منها بإنكارها إنكاراً كلياً، أو لآخرين يصدقون كل ما يروى فيها دون تمحيص، أو لغيرهم ممن يؤولونها على غير وجهها.

هدف الحديث:

يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية ـ قرن من الزمان ـ من يجدد شبابها، ويحيي مواتها.

وليس المقصود: برأس المئة؛ سنة مئة، أو مئة وواحد مثلاً، بل أواخر كل قرن، وأوائل القرن الذي يليه، فكل يطلق عليه (رأس)، بل نحن في الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن رأس المئة من الهجرة النبوية، أو من الوفاة، أو من البعثة

كما سنبين بعد.

المهم أن الله لا يدع هذه الأمة، دون أن يهيئ لها من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات.

ونحن في حاجة إلى تأكيد هذا المعنى، حتى نقاوم موجة اليأس التي علا مداها، وأنه لا فائدة ولا أمل، وأن الإسلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأن علامات الساعة الصغرى قد ظهرت، وستظل هكذا حتى تظهر العلامات الكبرى، وتقوم الساعة على من لايقول: «الله، الله». كما جاء في الصحيح[1].

ويؤكد قوم هذا المعنى بأحاديث يفهمونها على غير وجهها مثل حديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[2].

ونسي هؤلاء أن غربة الإسلام، لا تعني ضعفه بإطلاق، وكذلك غربة المتمسكين به والداعين إليه، لا تعني ضعفهم أو هوانهم، بل تعني تميزهم، وعدم ذوبانهم في غيرهم، فهم كالشامة في الناس.

وفي بعض روايات هذا الحديث، وصف النبي ﷺ الغرباء بقوله: «الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»[3]، فهؤلاء الغرباء ليسوا يائسين ولا

---

(١) جاء في مسلم عن أنس: «لا تقوم الساعة حتى لايقال في الأرض: الله، الله». حديث رقم (٢٣٤) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة برقم (٢٣٢)، ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود برقم (٢٦٣١) وقال: حسن صحيح غريب، وهو عند ابن ماجه برقم (٣٩٨٦)، ونسبه (الجامع الصغير) إلى ابن ماجه عن أنس، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس، ولم يخرجه البخاري، وذكر الترمذي في (العلل) أنه سأل عنه البخاري فقال: حديث حسن. الفيض ٣٢٢/٢.

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٣٢) من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، وهو

سلبيين في مجتمعاتهم، بل يصلحون ما أفسد الناس من سنن الإسلام، ويحيون ما مات من آدابه وأخلاقه.

وليس في الحديث ما يدل على أن هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة، فقد تكون غربة في بلد دون آخر، وفي قوم دون غيرهم، وفي زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم(١)، ثم يتبدل الحال، فيصبح الضعيف قوياً، والمقهور منصوراً.

ويستدلون هنا كذلك بحديث أنس عند البخاري: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه»(٢)، ولا ينبغي أن يؤخذ هذا الحديث على ظاهره وإطلاقه وعمومه.

فقد رأى بعض العلماء له تأويلاً حسناً، ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه وهو: أن الحديث مراد به خصوص من سمعوه من الصحابة، وإن فهم أنس رضي الله عنه منه العموم(٣) . يعني: أن النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أن يرشد هذه المجموعة التي سمعت من أصحابه، أن يهيئوا أنفسهم لتغير الزمان، بعد عهد النبوة،

ضعيف وإن كان الترمذي يحسن حديثه، بل يصححه أحياناً. وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً «طوبى للغرباء! طوبى للغرباء! طوبى للغرباء!» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم»؟ الحديث رقم (٧٠٧٢) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم ٣/١٩٦ بتحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) الحديث رواه البخاري في (كتاب الفتن) عن الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج ـ يريد الحجاج بن يوسف الثقفي ـ فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ . الحديث برقم (٧٠٦٨) من البخاري مع (الفتح) ١٣/ ١٩، ٢٠ ـ ط. الدار السلفية، بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وأشرف على طبعه السيد محب الدين الخطيب.

(٣) الفتح ١٣/٢١ قال: واستدل ابن حبان في صحيحه بأن حديث أنس ليس على عمومه بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً. ا.هـ.

حتى لايصدهم الواقع الذي يعيشون بعده، والتغيرات المذهلة التي سيشهدونها، ولا يدفعهم ذلك إلى زعزعة الثقة بدينهم ومنهجهم.

ولو لا ذلك الفهم لتناقض الحديث مع الواقع، فقد كان زمن عمر بن عبد العزيز خيراً من زمن من قبله من بني أمية.

وكذلك زمن نور الدين محمود(١) الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي(٢) ـ اللذين حرر الله على أيديهما أرض الإسلام من الصليبيين، وأحيا بهما السنة،

---

(١) هو محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بـ (الملك العادل): ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، وكانت سيرته في صلاحه وعدله وحرصه على إقامة حكم الله في الداخل، وجهاد عدو الله في الخارج أشبه بسيرة الخلفاء الراشدين. قاتل الصليبيين وكان موفقاً في حروبه، وبنى المدارس والجوامع، والخانات في الطريق، وهو أول من بنى داراً للحديث، وكان محباً للعلم، مكرماً للعلماء، ينهض للقائهم ولا يرد لهم قولاً ... عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة دون تعصب، كما سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، وسمع منه جماعة. ت ٥٦٩ هـ.

انظر: «الأعلام » للزركلي ٤٦/٨، وكتاب «الروضتين» لأبي شامة، و «ابن الأثير» ١٥١/١١، و«البداية والنهاية» ٢٧٧/١٢ ـ ٢٨٤. ط بيروت، وللدكتور حسين مؤنس: نور الدين محمود: سيرة مجاهد صادق. نشرته الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(٢) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بـ (الملك الناصر) من أشهر ملوك الإسلام، وأحرصهم على إصلاح البلاد، والعدل بين العباد، قاهر الصليبيين الذي حرر الله على يديه (بيت المقدس) بعد بقائه في أيديهم أكثر من تسعين عاماً، ونصره عليهم في معركة (حطين) الشهيرة، حكم مصر والشام، وأسس الدولة الأيوبية، ولم يدخر لنفسه مالاً ولا عقاراً إلا ما بنى من مدارس ومستشفيات. ت ٥٨٩هـ.

انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣٧٦/٢، و «ابن الأثير» ٣٧/١٢، و «البداية والنهاية» ٢/١٣ وما بعدها، وكذلك أواخر جـ ١٢، و«شذرات الذهب» ٢٩٨/٢، و «الأعلام للزركي» ٢٩١/٩ ـ ٢٩٣.

وأمات البدعة ـ كان خيراً من أزمنة من قبلهما.

وكذلك لو أخذ الحديث على ظاهره كما يفهمه كثيرون، لتناقض مع الأحاديث التي دلت على ظهور الإسلام، وانتشاره قبل قيام الساعة، وخصوصاً عند ظهور ذلك الخليفة، أو الأمير الصالح الذي يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، وهو الذي اشتهر باسم (المهدي)(١)، وعند نزول المسيح عيسى ابن مريم ليحكم بالإسلام، ولا يقبل ديناً غيره(٢).

ولا أدري لماذا تشاع الأحاديث من هذا النوع، ويهال التراب على نوع آخر من الأحاديث التي تحمل الأمل والبشرى للأمة، مثل حديث أحمد والترمذي: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره»(٣).

وحديث أحمد وابن حبان والحاكم: «بشر هذه الأمة بالسناء والدين، والرفعة والنصر، والتمكين في الأرض ...»(٤).

---

(١) وردت فيه جملة أحاديث في (السنن)، ولم يرد في الصحيحين شيء صريح فيه.

(٢) انظر: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للعلامة أنور الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

(٣) رواه الترمذي عن أنس برقم (٢٨٧٣) وقال: حديث حسن غريب، وعزاه السيوطي في (الجامع الصغير) إلى أحمد أيضاً عن أنس، وإلى أحمد عن عمار بن ياسر، وإلى أبي يعلى عن علي، وإلى الطبراني عن عبد الله بن عمرو، وقال ابن حجر في (الفتح): هو حديث حسن، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. وقال المناوي: وصححه ابن حبان من حديث عمار. انظر: فيض القدير ٥/٥٠٧.

(٤) عزاه في (الجامع الصغير) إلى أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبيه. وذكر المناوي في الفيض ٣/٢٠١ أن الهيثمي قال عن سند أحمد: رجاله رجال الصحيح، وإن الحاكم صححه ووافقه الذهبي في موضع، ورده في آخر، وهذا صحيح، ولكنه باعتبار إسنادين مختلفين، فعلى ضوء الإسناد الذي ذكره الحاكم في المستدرك ٤/٣١١ أقره الذهبي على

وحديث أحمد وابن حبان: «ليبلغن هذا الأمر (يعني هـذا الدين) ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»(١).

أما ظهور بعض العلامات الصغرى للساعة، فلا يعني أن صفحة الإسلام قد طويت، وأن الساعة ستقوم غداً أو بعد غد، فإن بعثة النبي ﷺ من علامات السَاعة الصغرى، كما جاء في الصحيح «بعثت أنا والساعة كهاتين»(٢)، وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى.

المسلم مطالب بالعمل لدينه ودنياه دائماً:

على أن المسلم مطالب بأن يعمل لدنياه منتجاً معطاء، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولا يتوانى في عمارة الأرض لحظة واحدة، وهذا ما علمناه رسول الله ﷺ حين قال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ نخلة صغيرة ـ فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»(٣).

تصحيحه، ولكنه تعقبه في ٣١٨/٤، وانظر: تعليقنا على الحديث رقم (١٥) من كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) ط. دار الوفاء. وذكره المنذري في (الترغيب) وذكر تصحيح الحاكم له وأقره، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وذكره الألباني في (الصحيحة) برقم (٣).

(٢) رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس، ورواه أحمد والشيخان أيضاً عن سهل بن سعد. وهو معروف كذلك عن جابر وبريدة وغيرهما. قال الحافظ السيوطي: وهذا متواتر. الفيض ٢٠٢/٣، وانظر «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» لمحمد فؤاد عبد الباقي ط. عيسى الحلبي، حديث رقم (١٨٦٢ ، ١٨٦٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده، والبخاري في «الأدب المفرد» والطيالسي، وعبد بن حميد، والبزار

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، أو ستقوم للحظة؟ إنه لن يعيش حتى يجني ثمرة ما غرست يداه؟ وليس هناك من سيعيش بعده حتى يقول: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا! فالساعة تقوم على الجميع، الفكرة هنا هي تكريم العمل لذات العمل، ووجوب أن يبقى المؤمن عاملاً معطاء إلى اللحظة الأخيرة ما دام فيه قدرة على العطاء.

فإذا كان هذا مطلوباً لدنيا المرء، فكيف لايكون مطلوباً لدينه؟ كيف يكون الدين أهون عند الله من الدنيا؟!.

إن المؤمن مطالب أن يعمل لدينه ما استطاع، داعياً إلى الخير آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مجاهداً في سبيل الله، مقاوماً للشر والفساد، متعاوناً مع إخوانه المؤمنين على البر والتقوى، فإن النصوص التي أمرت بهذا كله لم تنسخ، ولم تخصص بزمن، بل هي باقية محكمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقفة مع الحديث:

ولابد لنا أن نبين في الحديث معنى المجدِّد، ومن يكون؟ وما الدين المجدَّد؟ ومن المجدَّد له؟ وما معنى التجديد؟ وما مداه؟ وجوانبه؟

من يقوم بالتجديد ؟

أما من يقوم بالتجديد والإحياء، فذلك موقوف على بيان معنى «من» هنا.

وغيرهم، وقال الهيثمي: رجاله ثقات أثبات. انظر: «فيض القدير» ٣/٣٠، ٣١، وذكره الألباني في «الصحيحة» رقم (٩)، وفي صحيح «الجامع الصغير» أيضاً (١٤٢٤).

فكلمة «من» في الحديث الشريف «من يجدد» قد فهمها الأكثرون على أنها للمفرد، ولذلك اعتبروا المجدد فرداً واحداً، من عباقرة الأمة وأفذاذها تبعثه العناية الإلهية، ليجدد ما درس، ويقوي ما ضعف، ويرتق ما فتق.

ومن هنا ذكروا عدداً من المجددين الأفراد، فمجدد المئة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ)، ومجدد المئة الثانية محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، واختلفوا في مجدد المئة الثالثة حيث كان على رأسها أكثر من علم ... فذكروا أبا الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، وأبا العباس بن سريج (ت٣٠٦هـ)، والنسائي صاحب السنن (ت٣٠٣هـ)، وذكروا في الرابعة القاضي أبا بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وأبا حامد الأسفراييني (ت٤٠٦هـ)، وفي الخامسة أبا حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وفي السادسة الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، وقيل: الرافعي (ت٦٢٣هـ)، وفي السابعة: ابن دقيق العيد (ت٧٠٣هـ)، وفي الثامنة: الحافظ زين الدين العراقي (ت٨٠٨هـ) أو سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥هـ).

وقد نظم الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) منظومة في ذلك ضمنها أسماء المجددين إلى زمنه، وطمح إلى أن يكون هو مجدد المئة التاسعة، كما ادعى الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه من أنكر من معاصريه.

وقد نقلها العلامة المناوي في فيض القدير، وفيها قال:

الحمد لله العظيم المنه ... المانح الفضل لأهل السنه
ثم الصلاة والسلام نلتمسْ ... على نبي دينه لا يندرسْ
لقد آتى في خبر مشتهرِ ... رواه كل عالم معتبر
بأنه في رأس كل مئة ... يبعث ربنا لدين الأمه
مَنّا عليها عالماً يجددُ ... دين الهدى لأنه مجتهدُ

فكـــان عنـــد المئـــة الأولى عمـــرْ خليفـــة العـــدل بإجمـــاع وقـــر
والشـــافعي كـــان عنـــد الثانيـــه لمـــا لـــه مـــن العلـــوم الســـاميه
وابـــن ســـريج ثـــالث الأئمـــه والأشـــعري عـــدَّه مـــن أمَّـــه
والبـــاقلاني رابـــع أو ســـهل أو الأسفرايـــيني، خُلْـــف قـــد حكـــوا
والخـــامس الحـــبر هـــو الغـــزالي وعـــده مـــا فيـــه مـــن جـــدال
والسـادس الفخـــر الإمـــام الـــرازي والرافعـــي مثلـــه يـــوازي
والســـابع الراقـــي إلى المراقـــي ابـــن دقيـــق العيـــد باتفـــاق
والثـــامن الحـــبر هـــو البلقيـــني أو حـــافظ الأنـــام زيـــن الديـــن
والشـرط في ذلـك أن تمضـي المئـه وهـو علـى حياتـه بـين الفئـه
يشـــار بـــالعلم إلى مقامـــه وينصـــر الســـنة في كلامـــه
وأن يكـــون جامعـــاً لكـــل فـــن وأن يَعُـــمَّ علمُـــه أهـــل الزمـــن
وأن يكـون في حديـث قـد روى من أهل بيت المصطفى وقـد قـوى
وكونـــه فـــرداً هـــو المشـــهور قـــد نطـــق الحديـــث والجمهـــور
وهـــذه تاســـعة المئـــين قـــد أتـت ولا يُخلَـف مـا الهـادي وعـد
وقـــد رجـــوت أنـــني المجـــدد فيهـا ففضـــل الله ليـس يجحـد[1]

وإذا كـان السـيوطي قـد رجـح كـون المجـدد فـرداً؛ لأنـه المشـهور عنـد الجمهور، فقد نقل المناوي، قول الحافظ الذهبي، «من» هنا للجمع لا للمفرد، فنقـول مثـلاً، علـى رأس الثـلاث مئـة: ابـن سـريج في الفقـه، والأشـعري في الأصول، والنسائي في الحديـث، وعلـى الست مئـة مثـلاً: الفخـر الـرازي في الكلام، والحافظ عبد الغني في الحديث، وهكذا[1].

---

(١) «فيض القدير» ٢/٢٨٢.

(١) السابق ١/١١.

وقال ابن الأثير في (جامع الأصول):

(قد تكلموا في تأويل هذا الحديث، وكل أشار إلى القائم الذي هو من مذهبه، وحملوا الحديث عليه، والأولى العموم، فإن «من» تقع على الواحد والجمع، ولا تختص أيضاً بالفقهاء، فإن انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقراء، والوعاظ، لكن المبعوث ينبغي كونه مشاراً إليه في كل من هذه الفنون.

ففي رأس الأولى من أولي الأمر: عمر بن عبد العزيز، ومن الفقهاء: محمد الباقر، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، والحسن، وابن سيرين، وغيرهم من طبقتهم، ومن القراء: ابن كثير، ومن المحدثين: الزهري.

وفي رأس الثانية من أولي الأمر: المأمون، ومن الفقهاء: الشافعي، واللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة، وأشهب من أصحاب مالك ... ومن القراء: الحضرمي، ومن المحدثين: ابن معين، ومن الزهاد: الكرخي.

وفي الثالثة من أولي الأمر: المقتدر، ومن الفقهاء: ابن سريج الشافعي، والطحاوي الحنفي، والخلال الحنبلي، ومن المتكلمين: الأشعري، ومن المحدثين: النسائي.

وفي الرابعة من أولي الأمر: القادر، ومن الفقهاء: الأسفراييني الشافعي، والخوارزمي الحنفي، وعبد الوهاب المالكي، والحسين الحنبلي[1]، ومن المتكلمين: الباقلاني، وابن فورك، ومن المحدثين: الحاكم، ومن الزهاد: النوري، وهكذا يقال في بقية القرون)[2].

---

(١) هو الحسين بن خلف الفراء.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ١١/٣٢٠ ـ ٣٢٤، ويلاحظ أن ابن الأثير ذكر بعض أفراد اعتبرهم

وذكر الحافظ في (الفتح) ما نبه عليه البعض وهو: أنه لايلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط، بل الأمر فيه كما ذكره النووي في حديث: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدث، ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وتفرقهم في الأقطار، ويجوز تفرقهم في بلد، وأن يكونوا في بعض دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم، أولاً فأولاً، إلى أن لايبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا أتى أمر الله.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد: أنهم كانوا يحملون الحديث عليه (يعني الحديث الوارد في التجديد). وأما من بعده فالشافعي، وإن اتصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمة، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل.

قال: «فعلى هذا كل من اتصف بشيء من ذلك عند رأس المئة هو المراد

من المجددين، وهم لا يرقون إلى هذا المستوى مثل أولي الأمر من العباسيين، فعليهم مآخذ كثيرة، والمقصود من نقل كلامه عدم حصر التجديد في واحد.

سواء تعدد أم لا»[1] انتهى.

مناقشة وترجيح:

والذي أختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما: أن «من» في الحديث المذكور، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد.

وذلك أن «من» في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك، وفي القرآن الكريم: ﴿**ومَن يعمَلْ منَ الصَّالحاتِ مِن ذَكرٍ أَو أُنثَى وهوَ مُؤمنٌ فأُولئِكَ يدخُلونَ الجَنَّةَ...**﴾[النساء: ١٢٤][2] . إذا عرفنا هذا، فقد يكون المجدد فرداً، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء والتجديد كعمر بن عبد العزيز، وقد قيل: فرد ذو همة، يحيي أمة! وقال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد!

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية، أو تربوية، أو جهادية، يتواصى أهلها بالحق والصبر، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة، كل في موقعه ومجال اهتمامه واختصاصه. هذا في مجال العلم والفكر، وذاك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال خدمة المجتمع؛ ورابع في مجال الحكم والسياسة، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة، وكل على ثُغرة من ثُغَر الإسلام: اتحدت أهدافهم، ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم.

---

(١) «فيض القدير» ١/١١، وانظر: «فتح الباري» ١٣/٢٩٥ط. الدار السلفية وشرح النووي على مسلم ٤/٥٨٣ ـ ٥٨٤.ط. الشعب بالقاهرة.

(٢) وغيرها من الآيات الدالة على ذلك كثير.

وهنا أحب أن أنبه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أن يعوه وهو:

إن اختلاف مناهج العمل للإسلام، وتعدد الجماعات العاملة لتجديده، ليس ظاهرة مرضية، ولا أمراً مذموماً عند الله، ولا عند الذين آمنوا؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، بمعنى أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض، وتجمعها القضايا الكبرى، والمواقف المصيرية، لتواجه العدو المشترك صفاً واحداً كالبنيان المرصوص.

أما أن يحاول كل منهم إثبات نفسه ونفي غيره، ويجعل أكبر همه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين، فإنه بذلك يؤدي إلى ضعف القوى الإسلامية كلها، وتآكلها من داخلها. كما يفتح ثُغرة للعدو المشترك، ليضرب الجميع، وهو آمن مستريح!

ويكون معنى (البعث) في الحديث: تهيئة الأسباب المواتية، وإتاحة الظروف المناسبة، وخلق المناخ الملائم، لظهور حركة التجديد للدين، والإحياء للأمة، وفق سنن الله تعالى التي لا تتبدل.

وليس معنى (البعث) إذن إظهار مجدد بخارقة من الخوارق الكونية، يهبط من السماء بغتة، أو تنشق عنه الأرض فجأة، ليغير ما بالناس، وإن لم يغيروا هم ما بأنفسهم.

وهذا الذي فهمناه من الحديث، هو الموافق لما جاءت به الأحاديث الأخرى، التي ناطت نصرة الدين في الزمن الأخير بطائفة تقوم على الحق، لا بفرد واحد، كما في الحديث الصحيح المعروف: «لا تزال طائفة من أمتي

قائمين على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». وقد ورد عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة.

بل هو الموافق لما في كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿**وممَّن خلَقنا أُمَّةٌ يَهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدِلُونَ**﴾[الأعراف: ١٨١].

وقد ورد: هذه الآية لكم ـ يعني المسلمين ـ وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها(١). يشير إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿**ومن قَومِ مُوسى أُمَّةٌ يهدُونَ بالحقِّ وَبهِ يعدِلونَ**﴾[الأعراف: ١٥٩].

وهذا الذي جاء به الخبر الإلهي، جاء بمثله الأمر الإلهي في مثل قوله تعالى: ﴿**ولتكُن مِّنكُم أمَّةٌ يدعُونَ إلى الخَيرِ ويأمُرونَ بالمَعروف وينَهَونَ عن المُنكَرِ وأُولئكَ همُ المفلحُون**﴾[آل عمران: ١٠٤]، ويؤكده مثل قوله تعالى: ﴿**وتَعاوَنوا عَلى البرِّ والتَّقوَى ....**﴾[المائدة: ٢]، وقوله: ﴿**وَتَواصَوا بالحقِّ وتواصَواْ بالصَّبرِ**﴾[العصر: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿**إنَّ اللهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ صفّاً كأنَّهم بنيَانٌ مرصُوصٌ**﴾[الصف: ٤]، وقوله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»(٢).

والحق أن الفرد مهما تكن مواهبه، ومهما يكن عطاؤه، فهو محدود

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عن قتادة بلاغاً إلى النبي ﷺ ٢٦٩/٢ط. الحلبي.

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عباس برقم (٢١٦٧)، وحديث ابن عمر برقم (٢١٦٨) واستغرب كليهما، لكن رواه الطبراني بسند رجاله ثقات، كما قال الهيثمي، وقال ابن حجر:له شواهد كثيرة منها موقوف صحيح؛ لذا رمز السيوطي لحسنه في جامعه الصغير. انظر: «فيض القدير» ٤٥٩/٦، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٠٦٥) الطبعة الثانية.

الطاقة والقدرة، ما لم يكن معه أعوان يشدون أزره، ويقـووون أمـره؛ فـالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته وأعوانه.

ولهذا قال موسى عليه السلام ـ وهـو القـوي الأمـين ـ حـين كلفـه الله بالرسالة: ﴿**واجعَل لّي وزيراً مّن أَهلي ۞ هَارونَ أخِي ۞ اشـدُدْ بـهِ أَزْري ۞ وأَشركهُ في أَمري ۞ كي نسبِّحكَ كثيراً ۞ ونَذكُرَك كثيراً ۞ إنَّك كُنتَ بَنَـا بَصـيراً**﴾[طه: ٢٩ - ٣٥]، وقـال الله تعـالى في جوابـه: ﴿**سنشُـدُّ عضُـدَكَ بِأخيكَ ونجعلُ لكُما سُلطَاناً ...**﴾[القصص: ٣٥].

وهذا يدلنا على أن الفرد مهما قوي، يحتاج إلى معونة غيره، حتـى يشـتد عضده.

وأصرح من ذلك وأوضـح قـول الله تعـالى لرسـوله محمـد عليـه الصـلاة والسلام: ﴿**هوَ الَّـذي أيَّـدكَ بنَصْـرِه وَبـالمؤمنينَ ۞ وألَّـفَ بَـينَ قُلوبِهِـم...**﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

فقد منَّ الله عليه بأنه أيده بنصـره وبـالمؤمنين المؤلفـة قلوبهـم علـى غايـة واحدة وعقيدة واحدة، أي أيده بالجماعة المؤمنة المترابطة.

وإذا فهمنا الحديث هذا الفهم، لم نعد في حاجة إلى انتظار (مجدد) أو مهـدي فرد، يهبط علينا من السماء في علبة مغلقة، دون أي جهد أو سعي منا.

ولم نعـد في حاجـة إلى أن يدعـي واحـد مـن النـاس أنـه مجـدد القـرن الأوحد،فيقبل منه قوم ويرفضه آخرون، كما فعل الجلال السيوطي رحمه الله، حين ادعى أنه مجدد المئة التاسعة، فأنكر عليه كثير من معاصريه.

ولم نعد في حاجة إلى أن يدعي واحد، أو فئة لزيد أو عمرو من الناس أنه مجدد المئة العشرة أو الرابعة عشرة له، ولا نظير له، فيقبله من كان على مذهبه أو مشربه، ويوسعه الآخرون تهكماً وسخرية.

ولم نعد في حاجة إلى أن ينتصب كل فريق لترشيح مجدد منه، فأهل الحديث يرشحون محدثاً، وعلماء الكلام يقدمون متكلماً، ورجال الفقه لايذكرون إلا فقيهاً، وكل جماعة يقدمون فقيهاً من مذهبهم، فالشافعية يقدمون شافعياً، والحنابلة يرشحون حنبلياً، وهكذا نجد المهتمين بالسياسة يرشحون خليفة أو أميراً، والمهتمين بالجهاد يرشحون قائداً عسكرياً.

إننا بهذا الفهم نشرك الأمة كلها في التجديد المنشود، فهي التي تفرز المجددين، وتصقلهم، وتحركهم، وتهيئ الظروف المناسبة لظهورهم وحركتهم، وهي التي تساعدهم على تحقيق آمالهم، وإزالة العقبات من طريقهم، وتمدهم بالزاد والوقود في رحلتهم الطويلة إلى ما ينشدون ... وهي التي تعطي كل فرد موقعه في قافلة التجديد؛ ليحرسه ويرعاه كما قيل: أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

وهنا يصبح سؤال كل مسلم:

ماذا يكون دوري في حركة التجديد؟ وما واجبي نحوه؟ بدل أن يكون كل همه وسؤاله: متى يظهر المجدد؟!.

متى يقع التجديد ؟

ولكن متى يقع التجديد؟

إن الحديث حدد للتجديد وقتاً وهو «رأس كل مئة سنة». ورأس الشيء

أعلاه، ورأس السنة أولها.

وقد تساءل الشراح هنا عن بداية المئة، فقال المناوي: يحتمل المولد النبوي، أو من البعثة، أو الهجرة، أو الوفاة، قال: ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث[1] اهـ.

وذلك أنهم في حديثهم عن المجددين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقول؛ لأنه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة.

ويلاحظ أنهم جعلوا العبرة بوفاة المجدد في رأس القرن، كما يوضح ذلك تاريخ وفيات الذين عينوهم للتجديد، فعمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، والشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وابن سريج (ت ٣٠٦هـ)، والباقلاني (ت٤٠٣هـ)، والغزالي (ت٥٠٥)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، وابن دقيق العيد (ت ٧٠٣هـ)، والعراقي (ت٨٠٨هـ).

ولم يذكروا إماماً مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه؛ لأنه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت ٧٢٨هـ).

والحديث لم يقل: إن الله يتوفى المجدد على رأس القرن، بل يبعثه على رأس القرن، ومعناه: أن مهمته تبدأ في رأس القرن، وليست تنتهي عنده.

وقد رأيت العلامة المناوي نبه على هذا المعنى، فقال:

(وهنا تنبيه ينبغي التفطن له، وهو أن كل من تكلم على حديث «إن الله يبعث ....»إلخ. إنما يقرره بناء على أن المبعوث على رأس القرن يكون موته

---

(١) «فيض القدير» ١/١٠.

على رأسه، وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنما هو: أن البعث ـ وهو الإرسال ـ يكون على رأس القرن، أي أوله. ومعنى إرسال العالم: تأهله للتصدي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام، وموته على رأس القرن أخذ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بإنصاف.

قال: ثم رأيت الطيبي قال: المراد بالبعث من انقضت المئة، وهو حي عالم مشهور مشار إليه.

والكرماني قال: قد كان قبيل كل مئة أيضاً من يصحح ويقوم بأمر الدين، وإنما المراد من انقضت المئة وهو حي عالم مشار إليه.

بل ذكر المناوي: أنه قد يكون في أثناء المئة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على الرأس، وأن تخصيص رأس القرن، إنما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالباً، وظهور البدع، ونجوم الدجالين)[1]. وهو كلام وجيه.

والذي أراه أن الحديث يفيد أنه لايبزغ قرن، إلا ويبزغ معه فجر جديد، وأمل جديد، وبعث جديد، حتى تستقبل الأمة المسلمة القرن بقلوب يحدوها الرجاء في غد أفضل، وعزائم مصممة على عمل أمثل، ونيات صادقة في تغيير الواقع بما يوافق الواجب، وخصوصاً أن المفروض في الأمة أن تقف على رأس القرن مع نفسها وقفة محاسبة وتقويم، محاولة أن تستفيد من ماضيها، وتنهض بحاضرها، وترقى بمستقبلها مبتهلة إلى ربها أن يكون يومها خيراً من أمسها، وغدها خيراً من يومها.

ولم ينف الحديث وجود مجددين في أواسط القرن وأواخره، بل هذا هو

---

(١) «فيض القدير» ١/١٢، ١٣.

الواقع الملحوظ لمن يقرأ تاريخ هذه الأمة، ويجد من المجددين أمثال الأئمة: ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، وابن الوزير، وابن حجر، والدهلوي، والشوكاني، وغيرهم من الأعلام.

من المجدّد له؟

أما المجدَّد له، كما بين الحديث، فهو (هذه الأمة)، وهي الجماعة المحمدية، كما قال المناوي، وأصل (الأمة) الجماعة، مفرد لفظاً، جمع معنى، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي، وهم باعتبار بعثه فيهم، ودعائهم إلى الله، يسمون (أمة الدعوة)؛ فإن آمنوا كلاً أو بعضاً، سمي المؤمنون (أمة الإجابة) وهو المراد هنا، بدليل إضافة الدين إليها في قوله: «دينها»(١).

فكلمة «لهذه الأمة» إشارة إلى أمة الإسلام، أمة الإجابة، على امتداد قرونها وأجيالها، كأن النبي ﷺ يستحضرها أمامه، ويشير إليها بقوله: «هذه الأمة».

وهي الأمة المذكورة في القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿**وكَذلِك جَعلناكُمْ أُمَّةً وسَطاً**﴾[البقرة: ١٤٣]، ﴿**كنتُم خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس**﴾[آل عمران: ١١٠].

ولا يعرف القرآن ولا السنة أمة غير الأمة الإسلامية، وهي أمة واحدة كما أمر الله تعالى، وإن اختلفت أجناسها وألوانها وأوطانها: ﴿**إنَّ هذِه أُمَّتكُم أُمَّةً واحدةً**﴾[الأنبياء: ٩٢] ﴿**وإنَّ هذِهِ أمَّتُكم أمَّةً واحدةً وأَنَا ربُّكم فاتَّقونِ**﴾[المؤمنون: ٥٢].

ولا يجوز أن نقول كما يقول بعض الناس: (الأمم الإسلامية)، فليس في

---

(١) «فيض القدير» ١/١٠.

الإسلام (أمم)، بل (أمة) واحدة، ولكن هناك (شعوب إسلامية) داخل هذه الأمة.

والتجديد المطلق الكامل هو الذي يغطي مساحة الأمة الإسلامية كلها، ويؤثر فيها جميعاً، كما أن التجديد الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معاً، وقد رأينا هذا في مثل تأثير عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي ونحوهم، ممن أثروا في محيط الأمة المسلمة جمعاء، وإن كان تأثير كل منهم في جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإسلامية.

ولكن التجديد قد يكون جزئياً، خاصاً بجانب من جوانب الحياة، أو بقطر من الأقطار، أو بفئة من الفئات، أو نحو ذلك، وقد يتسع لأكثر من جانب وأكثر من فئة، وأكثر من بلد.

ما الدينُ المجدَّد ؟ !

أما (المجدّد) في الحديث فهو (الدين). ولكن ما المراد بـ (الدين) في الحديث؟ وكلمة (الدين) ومثلها كلمة (الإسلام) إذا أطلقت تعني أحد أمرين:

أولهما: المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع؛ لينظم بها علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وهو ما عبر عنه العلامة ابن خلدون بأنه: «وضع إلهي سائق للبشر باختيارهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم».

وهذا المعنى ـ بالنظر إلى أسسه وأصوله ـ ثابت لايقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية.

والثاني: الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكراً وشعوراً، وعملاً وخلقاً، وفي هذا المعنى يقال: فلان ضعيف الدين أو قويه، حسن الإسلام أو رديء الإسلام.

والدين هنا متغير متحرك، فهو يزيد وينقص، ويضعف ويقوى، ويصفو ويكدر، ويستقيم وينحرف، بحسب فهم الإنسان له، وإيمانه به، والتزامه بتعاليمه.

وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد، ولا غرو أن جاء الدين في الحديث الذي معنا مضافاً إلى الأمة، وليس مضافاً إلى الله «ليجدد لها دينها» فالتجديد ينصب على دين الأمة، وليس على دين الله تعالى.

معنى التجديد:

وبهذا نرى أنه لا معنى لإنكار بعض العلماء عبارة (التجديد) في الدين، وتوجسهم خيفة أن يستخدمها بعض المنحرفين فيما لايقبله الإسلام، فلسنا أحرص على الدين ممن بعثه الله به، وقد نطق بهذه الكلمة وصح بها الحديث، فلم يعد يسع مسلماً أن يتخوف من استعمالها، وإنما المهم هو تحديد مدلولها حتى لايستخدمها كل فرد أو كل فريق بما يحلو له.

فما معنى التجديد هنا؟!...

نقل العزيزي في شرحه للجامع الصغير عن العلقمي: أن معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما[1]، فجعل

---

(١) «السراج المنير» للعزيزي ١/٤١١.

التجديد ينصب على (العمل).

وقال المناوي في معنى (يجدد): يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة[1] ، فجعل التجديد منصباً على (العلم).

وفي مقام آخر قال: يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة[2]. وهو يشمل العلم والعمل.

والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعاً.

وأود أن أنبه هنا على معنى مهم في قضية التجديد، وهو: أن التجديد لشيء ما، هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهي منه، وترميم ما بلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى.

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشئ آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء.

ولنأخذ بذلك مثلاً في الحسيات؛ إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق، فمعنى تجديده: الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يبقى على خصائصه وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به ... إلخ، وليس من التجديد في شيء أن نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه.

وكذلك الدين: لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان.

---

(١) «فيض القدير» ٢/٢٨١، ٢٨٢.

(٢) «فيض القدير» ١/١٠.

وهذه العودة لا تخيف ـ كما يتوهم بعض الناس ـ إنها في الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور.

إن الذي يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنهم أفقه الناس لروح الإسلام ومقاصده، ولم يكونوا حرفيين، ولا شكليين. كانوا ملتزمين كل الالتزام بشرع الله، ومع هذا كانوا يجتهدون في أحكام الوقائع بروح سمحة، تعلم الناس أن الله لم يشرع دينه إلا لمصلحة عباده، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وكان منهجهم كما عبر عنه الإمام علي رضي الله عنه ترجيح (النمط الأوسط) الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي.

إن مفتاح التجديد للدين هو: الوعي والفهم، وبعبارة إسلامية صميمة هو: الفقه، ولا أعني بالفقه المعنى الاصطلاحي المعروف، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق فقط، وإن كان هذا مطلوباً ومحموداً، ولكن أعني بالفقه: مفهومه القرآني والنبوي وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**قَد فصَّلنا الآيَاتِ لِقَومٍ يفقهُونَ**﴾[الأنعام: ٩٨] وهو الذي نفاه الله عن المشركين وغيرهم من أعداء المسلمين حين وصفهم بأنهم ﴿**قومٌ لايفقَهونَ**﴾[الأنفال: ٦٥]، وقال عن أهل جهنم: ﴿**لَهُم قُلوبٌ لا يفقَهون بِها**﴾[الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿**فَلولا نفَرَ مِن كلِّ فرقةٍ منهُم طَائِفَةٌ لِيَتفقهُّوا في الدِّينِ وَلِيُنذِروا قَومَهم إذا رجعُوا إليهِم لعلَّهم يَحذُرونَ**﴾[التوبة: ١٢٢]، وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١).

(١) متفق عليه من حديث معاوية.

والفقه هنا كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان: فقه في الكون، وفقه في الدين. فالأول يعني الفهم عن الله فيما خلق، والثاني يعني الفهم عن الله فيما شرع.

الفقه في الكون يراد به: الفقه لآيات الله في الأنفس والآفاق، ولسننه التي لا تتبدل في الكون والإنسان، كما يدل على ذلك سياق الآيات الكريمة.

والفقه في الدين هنا يعني، المعرفة التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحصة للإسلام من ينابيعه الصافية، بحيث يفهم فهماً سليماً، خالصاً من الشوائب، بعيداً عن غلو المتطرفين، وتقصير المضيعين، مسترشدين بهدي الجيل الأول الذين كانوا أفهم الناس لمقاصد الإسلام، وأحرصهم على التزامه والعمل به.. غير غافلين عما تميز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير، مفرقين بين الكليات والجزئيات، وبين الأصول والفروع من الأحكام، مميزين بين ما شأنه الثبات والخلود، وما شأنه المرونة والتغير، مفرقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع، حسنات كانت أو سيئات، فليست الأركان كبقية الفرائض، وليست الفرائض كالواجبات، ولا الواجبات كالسنن الرواتب، ولا الرواتب كالمستحبات.

ومن ناحية أخرى: ليس الكفر كالمعاصي وإن كانت كبائر، وليست كبائر المحرمات كصغارها، وليست الصغائر المتفق عليها كالمشتبهات المختلف فيها، وليست المحرمات كالمكروهات، ولا المكروه تحريماً كالمكروه تنزيهاً، ولا المكروه تنزيهاً كخلاف الأولى، ولكل عمل مرتبته، ولكل مرتبة حكمها.

ومن أعظم الخطل والخطر تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال، واعتبار الجميع شيئاً واحداً؛ فإن الجمع بين ما فرقه الله، كالتفريق بين ما

جمعه الله، كلاهما لا يجوز.

ونحن في مطالع القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياته ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه: الترجيحي الانتقائي والإبداعي الإنشائي. اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام، ويصف لأدواء مجتمعاتنا أدويتها الناجحة من صيدلية الإسلام نفسه، لا من مصنوعات الغرب العلماني أو الشرق الإلحادي.

وهذا يوجب على المجامع العلمية المعنية بهذا المجال أن تعين على ذلك، ولا تضيق صدراً بالآراء الاجتهادية، كما يجب على كليات الشريعة أن تجعل مناهجها وكتبها ودراساتها في الفقه وأصوله وتاريخه ـ وبخاصة فقه القرآن والسنة في ضوء المقارنة العلمية ـ قادرة على تكوين العقلية الفكرية المستقلة، المرشحة للاجتهاد في مجالاته الانتقائية والإنشائية، وأن تنمي قدرات النابهين من طلابها، وتقوي عزائمهم على المضي في هذا الطريق.

تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر، مخاطباً كل قوم بلسانهم، واعياً لخصائص العصر، وخصائص الإسلام، وخصائص الأقوام، مدركاً المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى: ﴿**وَما أَرْسَلنا من رسُولٍ إلا بلسانِ قومِه لِيُبيِّن لَهُم**﴾[إبراهيم: ٤] .

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالإنجليزية، والصينيين بالصينية فحسب؛ بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه، ولكل منهما مدخل قد يصلح له، ولا يصلح للآخر.

وهذا يعني تطوير أجهـزة الدعـوة وأسـاليبها وقـدرات رجالها، وفقـاً لما يتطلبه العصر، ويوجبه الإسلام، ويحتمه ما يصنعه الآخرون.

والحديث إلى قوم وصلوا إلى سطح القمر، غير الحديث إلى مـن يعيشـون في الأدغال؛ فلهؤلاء لسان، ولأولئك لسان، ولابد أن نعرف لسان كـل قـوم لنعقل عنهم، ونبين لهم.

تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسـلامي صحيح، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية، ونظرتـه إلى الديـن والحيـاة والإنسـان والمجتمع والتاريخ، ومستفيد من كل المدارس القائمة ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها، دون أن يكون أسيراً لفلسفة واحدة منها، أو لفلسفاتها جميعاً.

وهذا يعني: أن تتحرر جامعاتنا مـن ربقـة التقليـد للفكـر الغربـي بشـقيه الليبرالي والماركسي، وأن ترجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحـافل، تـأخذ منه وتضيف إليه، وتعدل فيه، وتنشئ أجيالاً مستقلة الفكر، تجمع بين الأصالة الإسلامية والحداثة العصرية.

وهـذا واجـب كـل الجامعـات في بلادنـا العربيـة والإسـلامية، وواجـب الجامعات الإسلامية فيها على وجه الخصوص، مثـل جامعـة الأزهـر، وجامعـة الإمام محمد بن سعود، والجامعة الإسلامية العالميـة بإسـلام آبـاد، ونحوهـا ... وذلك بحكم تكوينها وانتمائها ونوعية القائمين عليها.

تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق (فروض الكفايات) مـن العلـوم الكونيـة والرياضية، وتطبيقاتها (التكنولوجية) في المجالات المدنيـة والعسـكرية، ويجعـل أمـة (سـورة الحديـد) قـادرة علـى تصنيـع الحديـد، وعلـى اسـتغلال ثرواتهـا

المطمورة والمنشورة، بحيث لاتكون عالة على غيرها في القوت الذي يحييها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وفقاً لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام، ويحتمه التطور.

وإذا كان أهل الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية يتنادون بوجوب تطوير التعليم عندهم بما يتناسب وطفرات العصر، ويرون أن الأمة على حافة الخطر، إذا لم تتدارك مسيرتها التعليمية .... فماذا يكون حالنا نحن...؟

والتجديد للدين ليس فكرياً فحسب، كما هو مفهوم الكثيرين، عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه، فلا يكاد يدور بخلدهم إلا تجديد الاجتهاد، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة.

ولا ريب في أن تجديد الفكر، وإحياء الاجتهاد، وتصحيح الفهم، يأتي في طليعة التجديد المنشود، فإن العلم يسبق العمل، والفكرة تسبق الحركة.

وحسبنا أن الله بدأ وحيه لرسول الله ﷺ بآية: ﴿اقْرَأْ﴾[العلق:١] والقراءة هي مفتاح العلم والفكر والتأمل.

ولكن الإنسان ليس عقلاً فقط، بل هو عقل وقلب، وجسم وروح، فلا بد للتجديد أن يشمل كيان الإنسان كله، وهو ما رعاه الإسلام أعظم الرعاية، فأعطى لكل منها حقه.

وقد اتفق العلماء الذين عنوا بتحديد أسماء المجددين في تاريخ الإسلام، على أن عمر ابن عبد العزيز هو مجدد المئة الأولى (ت١٠١هـ) على‌رغم قصر مدة خلافته، فلم تزد على ثلاثين شهراً.

وتجديد عمر لم يكن في الجانب الفكري، أو العلمي ـ كتجديد الشافعي

في رأس المئة الثانية ـ بل كان تجديده في ميدان العمل والحكم، حيث أبطل تقاليد الجور، وأحيا سنن العدل، وأزال المظالم، ورد الحقوق إلى أهلها، ورفض مطالب الطامعين من أهله، وأشاع جو التقوى لله والخشية منه، والرغبة فيما عنده، ولهذا اعتبروه خامس الراشدين.

فعل ذلك كله بلا ادعاء ولا تظاهر ولا تفاخر؛ بل كان يناجي ربه راجياً خائفاً، فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلاً أن ينال رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر!!.

وقال له مرة أحد الناس بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً !!

فرد الحق لأهله، ووضع الأمر في نصابه، فالإسلام هو الذي صنع عمر وليس عمر الذي صنع الإسلام.

تجديد الإيمان:

ونعني بالإيمان هنا: العقيدة الإسلامية وأساسها التوحيد، وعناصره ثلاثة أساسية: ألا نبتغي غير الله رباً، ولا نتخذ غير الله ولياً، ولا نبتغي غير الله حكماً.

وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

وبعد التوحيد يأتي الشق الثاني من العقيدة، وهو الإيمان بالرسالة: «وأن محمداً رسول الله» ليس إلهاً ولا ابن إله، ولا ثلث إله، ولا محلاً حل فيه الإله؛ إنما هو عبد الله ورسوله، أنزل الله عليه كتابه، وبلغ ما أوحي إليه من ربه، لم يخن ولم يكتم، ولم ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوْحَى﴾[النجم: ٤].

ومن أركان هذه العقيدة التي بلغها محمد عن ربه: الإيمان بالآخرة

والجزاء، وأن الموت ليس نهايـة المطـاف، وأن وراء هـذه الحيـاة الفانيـة حيـاة أخرى باقية، توفى فيها كل نفس مـا كسبت، وتجـزى بمـا علمـت: ﴿**فمَـن يَعملْ مِثقَالَ ذرَّةٍ خيراً يرَهُ * ومن يعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شرًّاً يرَهُ**﴾[الزلزلة: ٧-٨].

أهمية الإيمان في حياتنا:

والإيمان في حياتنا نحن المسلمين ليس شيئاً على هامش الحياة. إنـه جوهـر وجودنا، وسر بقائنـا، ولـب رسـالتنا ... وبدونـه لا معنـى لحياتنـا ولا مـبرر لوجودنا.

وإذا كان لكل شخصية مفتاح، تستطيع إذا عرفته واستخدمته أن تعـرف به مكنوناتها، وتفجر به مخزون طاقاتها؛ فإن مفتاح شخصية الإنسان في أمتنـا هو الإيمان.

وكما أنك بلمسة المفتاح أو زر خـاص للسيارة في الـبر، أو البـاخرة في البحـر، أو الطـائرة في الجـو ... تسـتطيع أن تحركهـا وتدفـع بهـا إلى الأمـام، وتقطع بها المسافات. فكذلك نستطيع بعـامل الإيمـان أن نحـرك كوامـن هـذه الأمة، ونصنع منها وبها العجائب وروائع البطولات، التي تحكى كالأساطير.

لقد عزف عازفون على نغمات شتى لتحريك هذه الأمـة، فمـا تحركـت ولا استجابت.

عزفـوا علـى نغمـة القوميـة، وعلـى نغمـة الاشـتراكية، وعلـى نغمـة الديمقراطية، فما صنعوا شيئاً غير النكسات والوكسات!

ولكن حين تقود هذه الأمة بالمصحف ترفعه، أو حـين تصـدع بصيحـة (ا لله أكـبر) وحينمـا تنـادى: يـا ريـح الجنـة هـبي؛ سـتجد الجماهـير معـك ووراءك بالملايين مستعدة للموت في سبيل ا لله.

هذا الإيمان المرصود في فطرة الأمة، المذخور في كيانها المعنوي، أشبه ببذرة طيبة في أرض طيبة، يجب علينا أن نرعاها وننميها ونتعهدها ونغذيها من ناحية .. وأن نحميها ونحافظ عليها من المواد السامة، والحشرات الضارة، حتى تنمو وتزهر وتثمر وتؤتي أكلها بإذن ربها.

حاجتنا إلى تربية إيمانية:

ولهذا كنا في حاجة إلى تربية إيمانية سليمة، تزرع في القلوب المعاني الربانية الأصيلة: الخشية من الله، والرجاء فيه، والأنس به، والحب له، والرضا عنه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، لأمره، والتسليم لحكمه، وحكم رسوله، كما قال تعالى: ﴿**فَلا وربِّك لا يُؤمنُونَ حتَّى يُحكِّموكَ فِيما شَجرَ بينهُم ثمَّ لا يَجدُوا في أنفسِهم حرَجاً ممَّا قضَيتَ ويُسلِّموا تسلِيماً**﴾[النساء: ٦٥]، ﴿**إنَّما كانَ قولَ المُؤمِنينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسُولِه ليَحكُم بينَهمْ أَن يقُولُوا سمعنَا وأَطعنَا وَأولئكَ همُ المفلِحونَ**﴾[النور: ٥١].

ومن عناصر هذه التربية: استحضار معاني الآخرة وما يتعلق بها: الموت، القبر، البعث، الحشر، الموقف، الحساب، الصحف، الميزان، الصراط، الجنة، النار.

وبعبارة أخرى: نحن في حاجة إلى لون من الصوفية الربانية الإيجابية المعتدلة، التي عبر عنها بعضهم بأنها: الصدق مع الحق، والخُلق مع الخلق، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿**إن الله معَ الذينَ اتَّقَوْا والَّذينَ هُم مُحسنونَ**﴾[النحل: ١٢٨].

وهذا هو روح الدين الحق: التقوى لله، والإحسان للناس؛ فالتصوف الحقيقي تقوى وأخلاق، قبل كل شيء.

يقول ابن القيم: الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين، وكذلك التقوى.

وينقل ابن القيم في (مدارج السالكين) عن بعض متقدمي الصوفية في تعريف التصوف قوله: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف(١).

فهذا هو التصوف الذي نريد: تصوف التربية والأخلاق القرآنية والنبوية، التصوف الذي يغذي الإيمان، ويرقق القلوب، ويحرك الدوافع، ويشحذ الإرادة، ويهذب النفس، ويقوم السلوك في ضوء الكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح، فهو الذي نحرص عليه، وندعو إليه، وهو الذي يقوم بمهمة (التزكية) التي أشار إليها القرآن في معالم الرسالة المحمدية: ﴿**هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِي الأُمِّيِّيْنَ رسُولاً مِنهُم يتلُو علَيهِم آياتِه ويُزَكِّيهِم....**﴾[الجمعة: ٢]، وهو (مقام الإحسان) الذي جاء في حديث جبريل المشهور، وعرفه النبي ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

أما إذا كان التصوف سلبية كالتي عبر عنها بعضهم بقوله: دع الخلق للخالق، واترك الملك للمالك! يريد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مرفوض، ومثل ذلك قولهم: أقام العباد فيما أراد! فهو كلام حق يراد به باطل!

وإذا كان التصوف إلغاء لشخصية المريد أمام شيخه، كما قالوا: من قال لشيخه: لم؟ لم يفلح! وقالوا: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! فهو كذلك مرفوض.

---

(١) «مدارج السالكين» ٣٠٧/٢.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (١/٨).

وإذا كان التصوف تفرقة بين الحقيقة والشريعة، كالذين قالوا: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم! فلسنا منه في شيء.

وإذا كان التصوف كهانة وتجارة بالدين لدى العوام، الذين يقادون بالأساطير وتصنع لهم التمائم والأحجبة والتعاويذ، فهو باطل نبرأ منه.

وبالجملة: إذا كان التصوف عباءة للخرافات في الفكر، والشِّركيات في العقيدة، والمبتدعات في العبادة، والضعف في الأخلاق، والسلبيات في السلوك، والإهمال للحياة، فنحن أول من يحاربه.

فإنما يتجدد الدين حقاً، بالدعوة إلى (الإسلام الأول): الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم وشرحته السنة المطهرة، وفهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، قبل أن يخلط بشوائب الملل والنحل، وفلسفات الأمم في الشرق والغرب، ندعو إليه خالصاً بلا شركة، نقياً بلا شوائب، شاملاً بلا تجزئة، متوازناً بلا غلو ولا تفريط، صراطاً مستقيماً بلا ميل ولا انحراف إلى اليمين أو الشمال: **﴿وَأَنَّ هَذا صراطِيْ مُستَقِيماً فاتَّبعوهُ ولاَ تَتَّبعُوا السُّبلَ فتفرَّق بكُم عن سبِيله ذلكُم وصَّاكُم به لعلَّكم تتَّقونَ﴾**[الأنعام: ١٥٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاجتهاد والتجديد

بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة

حول قضيتي الاجتهاد والتجديد كان هذا الحوار الذي أجرته مجلة (الأمة) القطرية مع المؤلف:

*** الاجتهاد من الدين وهو أصل من أصوله التي تثبت حيوية الإسلام وقدرته على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة، فما هي المراحل التاريخية لحركة الاجتهاد، وهل أغلق بابه ـ كما قال بعضهم ـ في عصور معينة، ومن يتحمل مسؤولية هذا الأمر؟ هل هي الدولة العثمانية كما قيل؟**

ـ بدأ الاجتهاد منذ عهد النبي ﷺ، كما ظهر ذلك في قصة (صلاة العصر في بني قريظة)، وفي حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وسأله: «بماذا تقضي إن عرض لك قضاء؟» فقال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: فبسنة رسوله الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد؟» قال أجتهد برأيي ولا آلو ... فأقره وأثنى عليه، وهو حديث مشهور جَوَّد إسناده عدد من الأئمة مثل ابن تيمية، وابن القيم،والذهبي، وابن كثير وغيرهم .. وقد اجتهد عدد من الصحابة في عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي ﷺ، وبلغه ذلك، فمنهم من أقره على اجتهاده، ومنهم من صحح خطأه.

بعد عهد النبي ﷺ اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وواجهوا مشكلات الحياة المتجددة في مجتمعات الحضارات العريقة التي ورثوها بحلول إسلامية اقتبسوها من نصوص الإسلام أو من هديه العام، ووجدوا فيه لكل

عقدة حلاً، ولكل داء دواء.

واجتهاد الصحابة في وقائع الحياة وفقههم لدين الله في علاجها، يمثل بحق الفقه الأصيل للإسلام، الذي يتسم بالواقعية، والتيسير، ومراعاة الشريعة لمصالح العباد، دون تجاوز أو افتئات على النصوص.

والناظر في فقه الخلفاء الراشدين، أو في فقه ابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم، رضوان الله عليهم، يجد ذلك واضحاً للعيان، ويوقن أن الصحابة هم أفقه الأجيال لروح الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك: موقف عمر ومن معه من فقهاء الصحابة، مثل: علي ومعاذ، حين أبى قسمة أرض العراق على الفاتحين باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿**واعلَموا أنَّما غنِمتُم من شيءٍ فأنَّ للهِ خُمُسَهُ** ...﴾[الأنفال: ٤١]، ورأى أن توقف الأرض لمصلحة الأجيال الإسلامية، وقال لمن عارضه: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!

وقال له علي ومعاذ: انظر أمراً يسع أول الناس وآخرهم!

وقرر بذلك وجوب تكافل الأمة في جميع أجيالها، إلى جوار تكافلها في جميع أقطارها.

ومثل ذلك موقف عثمان رضي الله عنه من ضالة الإبل، فقد جاء في الحديث الأمر بتركها، وقال لمن سأله عنها: (مالك ومالها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يأتي ربها)، وهكذا كانت تترك ضوال الإبل في عهد أبي بكر وعمر مرسلة تتناتج، لا يمسها أحد، حتى يجدها صاحبها، فلما كان عهد عثمان، وجد الناس قد تغيروا، وامتدت

الأيدي إلى ضوال الإبل، فلم يعد بعضها يصل إلى أصحابها، فـرأى المصلحـة قد تعينت في التقاطها، فعين راعياً يجمعها ويعرّفها، فإن لم يجد صاحبها باعهـا وحفظ الثمن له حتى يجيء.

وفي عهد علي رضي الله عنه رأى تضمين الصناع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس، مع أن يدهم في الأصل يد أمانة، ولكن علياً قـال: لا يُصلـح الناس إلا ذاك .. لما رأى من تغير أحوال الناس.

وهكذا كان فقه الصحابـة في سعة أفقـه وواقعيتـه وتيسـيره، مـع التزامـه بالأصول ولا ريب.

وقد سار في هذا الاتجاه تلاميذ الصحابة من التابعين الذين كونوا مدارس فقهية، في كل الأمصار تعلم وتفتي في النوازل، وتواجه كل حـادث بحديـث، ومن هذه المدارس أو الجامعات التي نشأت تحت سقوف الجوامع، برز مشاهير الأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة مثل: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والثوري، والأوزاعي، والطبري، وداود الظاهري..

وقد كان المجتهدون في القرون الأولى أكثر من أن يحصروا .. قد تنوعـت مشاربهم ومداركهم في استنباط الأحكـام، ولكنهـم اتفقـوا علـى أن المصـدر الأساسي لأحكام الشريعة هو الكتاب والسنة؛ فالكتاب هو الأصـل، والسـنة هـي الشـارحة والمبينـة، ويـأتي بعـد ذلـك المصـادر التبعيـة الأخـرى، مثـل: الاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع، ورعايـة العـرف، وشـرع مـن قبلنـا، وغيرها مما اختلف فيه الفقهاء، ما بين مثبت وناف، وموسع ومضيق...

المهم أن الفقه نما واستبحر، وكثرت مسائله الواقعة والمتوقعة أو المفترضـة

ودُوّنت كتبه وقُعِّدت قواعده، وضبطت طرائق استنباطه بواسطة (علم الأصول) الذي ابتكره المسلمون، ولا يوجد عند أمة مثله، ويعد من مفاخر التراث الإسلامي.

وقد ظل الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوى في المجتمعات الإسلامية كلها، حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء، إلا في دائرة ضيقة هي ما سموه: (الأحوال الشخصية).

وليس صحيحاً ما يقال: إن الإسلام قد عُطّل بعد عصر الخلفاء الراشدين، فإن الذي لا شك فيه أن المسلمين طوال اثني عشر قرناً، لم يكن لهم دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلامية، برغم ما حدث من سوء الفهم، أوسوء التطبيق لأحكامها السمحة.

إغلاق باب الاجتهاد

أما عن إغلاق باب الاجتهاد فنقول:

أصبحت الدولة العثمانية مشجباً يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات .. فالواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذيول شجرة الاجتهاد المطلق، أمور سبقت الدولة العثمانية، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوتة، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين، حتى وجدنا الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) يعلن أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو لنفسه أن يكون مجدد المئة التاسعة، كما هو المشهور في فهم الحديث الوارد في (التجديد)، ويؤلف كتابه: (الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض).

وفي القرن الثاني عشر نجد المجدد الكبير حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) صاحب (حجة الله البالغة) وغيره من الكتب الأصيلة ... وفي القرن الثالث عشر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) والذي تجلى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه (نيل الأوطار)، و (السيل الجرار)، و (الدراري المضيئة)، وشرحه (الدرر البهية)، و (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

على أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول: إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد، أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدي ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، والجهاد لحمايته والذود عنه ..

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لابد للدين من كتاب هاد، وحديد ناصر ...) مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿**لَقَد أَرسَلنا رسُلنَا بالبيِّناتِ وأنزَلنَا معَهُمُ الكتابَ والميزَانَ لِيقُومَ الناسُ بِالقسطِ وأنزَلنا الحَدِيدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ...**﴾[الحديد: ٢٥].

وكان اهتمام الدولة العثمانية بالحديد أكثر، أي: بالجانب العسكري أكثر من الجانب الفكري، حتى كانت الصدمة المذهلة بمواجهة نهضة الغرب الحديثة.

*** يرى بعضهم أن حركة الاجتهاد في العصر الحديث قد بدأها (جمال الدين الأفغاني)، إلا أن تلامذته من بعده عادوا تدريجياً إلى الاقتصار على النص، فأصبحو، أقرب إلى التقليد، وبخاصة محمد رشيد رضا، فهل**

يمكن وضع هذه الجهود في إطارها المناسب من حركة الاجتهاد؟

ـ هذه المقولة تدل على أن قائلها لم يحط علماً بمدلول الاجتهاد ومجاله وشروطه .. ولو أحاط بذلك علماً لعرف أن المسيرة كانت تصاعدية، و لم تنتكس كما زعموا، بل بدأت بالعموميات والمجملات ثم أخذت تتخصص، وبدأت رجراجة ثم شرعت تنضبط، فالشيخ محمد عبده كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة.. والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأستاذ الإمام، بما له من سعة اطلاع على كتب السنة والآثار، وإنتاج المدرسة السلفية، التي يمثلها الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شن حملاته القومية من مجلته العتيدة (المنار) على الجمود والتقليد، وكتب المقالات الإصلاحية، والفتاوى العلمية التجديدية، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد، وفتاواه التجريدية في العالم الإسلامي كله، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلّتها.. أما اجتهادات السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهاداً معيناً، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم (الثائر) الموقظ للعقول، المحرك للمشاعر، المثير للهمم والعزائم، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد، وكلٌ ميسر لما خُلق له.

وقد أُخذَ على الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل، ونحو ذلك، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها، وكان الانبهار بها على أشده؛ لذا غلبت عليه النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة، وتقريب تعاليم

الدين من المثقفين بالثقافة الغربية، ولو بالتكلف.

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص، لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً، لم يكن كذلك في زمنه، فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه، وأعطى كل عامل ما يستحقه، وأقام الشهادة لله ...

*** الاجتهاد الشرعي فرض كفاية حيناً، وفرض عين حيناً آخر، وله مدلوله ومجاله وشروطه .. هل يمكن تحديد هذه القضايا حتى لا تختلط الأمور .. ويدخل باب الاجتهاد من ليس أهلاً له؟**

ـ الاجتهاد هو: بذل غاية الجهد، واستفراغ غاية الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بطريق النظر وإعمال الفكر، وهو فرض كفاية على الأمة في مجموعها، تأثم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يسد حاجتها فيه، وهو فرض عين على من أنس في نفسه الكفاية له، والقدرة عليه، إذا لم يجد في المسلمين من يسد مسده.

والاجتهاد يعمل في منطقتين:

*** إحداهما:**

منطقة ما لانص فيه، مما تركه الشارع لنا قصداً منه، رحمة بنا غير نسيان .. ليملأ المجتهدون هذا الفراغ بما يحقق مقصد الشارع، وفق مسالك الاجتهاد التي يتبعها المجتهدون من القياس أو المصلحة المرسلة أو الاستحسان أو استصحاب الحال ـ أو غير ذلك ... ومن الملاحظ أن بعض المجالات كثرت

فيها النصوص إلى حد التفصيل أحياناً، مثل: العبادات وشؤون الأسرة؛ لأنها مما لايكاد يتغير بتغير الزمان والمكان، والحاجة ماسة فيه إلى نصوص ضابطة لمنع التنازع ما أمكن ذلك ... وإلى جانب ذلك توجد مجالات تقل فيها النصوص إلى حد كبير، أو تأتي عامة مجملة، لتدع للناس حرية الحركة في الاجتهاد لأنفسهم ـ في ضوء الأصول الكلية ـ وفق مصالح مجتمعهم، وظروف عصرهم، دون أن يجدوا من النصوص المفصلة ما يقيدهم، أو يعوق مسيرتهم، كما في شؤون الشورى ونظام الحكم وقوانين الإجراءات والمرافعات وغيرها...

***وثانيتهما:**

منطقة النصوص الظنية، سواء أكانت ظنية الثبوت ـ ومعظم الأحاديث النبوية كذلك ـ أم ظنية الدلالة، ومعظم نصوص القرآن والسنة كذلك .. فوجود النص لايمنع الاجتهاد كما يتوهم واهم، بل تسعة أعشار النصوص أو أكثر قابل للاجتهاد وتعدد وجهات النظر، حتى القرآن الكريم ذاته يحتمل تعدد الأفهام في الاستنباط منه، ولو أخذت آية مثل (آية الطهارة) في سورة المائدة، وقرأت ما نقل في استنباط الأحكام منها، لرأيت بوضوح صدق ما أقول.

وبجانب هاتين المنطقتين المفتوحتين للاجتهاد، توجد منطقة في الشريعة مغلقة بإحكام، لايدخلها الاجتهاد، ولا يجد حاجة لدخولها: إنها منطقة القطعيات في الشريعة، مثل وجوب الفرائض الأصلية، كالصلاة والزكاة والصيام، وتحريم المحرمات اليقينية، كالزنى، وشرب الخمر، والربا، وأمهات الأحكام القطعية، كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن،

وأحكام الحدود والقصاص، وعدد المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالاتها.

هذا النوع من الأحكام ــ التي لايدخلها الاجتهاد ــ هو الذي يجسد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، فلا يجوز أن تدخل معترك الاجتهاد، ليبحث باحث:

هل يجوز السماح بالخمر من أجل السياح؟

أو نعطل الصيام من أجل زيادة الإنتاج؟

أو نجمد الحج توفيراً للعملة الصعبة؟

أو نعلق الزكاة اكتفاء بالضرائب الوضعية؟

أو نعطل الحدود والقصاص إشفاقاً على المجرمين؟ كأننا أرحم من الله بعباده! ﴿**قُل أَأَنتُم أعلَمُ أمِ اللهُ** ...﴾[البقرة: ١٤٠] .

وهذا هو الذي يجب الاحتراس منه:

أن نجتهد فيما لايجوز فيه، أو أن يلج باب الاجتهاد من ليس أهلاً له، ولا تتحقق فيه شروطه، وهذا هو الذي دعا بعض العلماء قديماً أن ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد، ليسدوا الطريق على الأدعياء والمتطفلين ... على أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحاً، ولا يملك أحد إغلاقه بعد أن فتحه رسول الله ﷺ ... ولا يسع فرداً أو مجموعة من العلماء أن يقولوا في واقعة تعرض عليهم: ليس لنا حق الاجتهاد فيها؛ لأن الأقدمين لم يقولوا شيئاً في شأنها؛ إذ الشريعة لابد أن تحيط بكل أفعال المكلفين، وأن يكون لها حكم في كل

واقعة، وهذا ما لا يختلف فيه اثنان.

*** لابد من توافر شروط محددة فيمن يتصدى للاجتهاد الشرعي؛ فما هي هذه الشروط؟ وهل تنسحب على المجتهدين عموماً، أم أن هناك فرقاً بين من يتصدى للاجتهاد المطلق، ومن يتصدى للاجتهاد الجزئي؟**

ـ ليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد أو تتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت ولا (إكليروس)، ولكن هناك عالماً متخصصاً يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه، فهو الذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع، ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه اجتهاده، أصاب أوأخطأ.

وشروط المجتهد معروفة ومفصلة في كتب أصول الفقه، منها: شروط علمية ثقافية، مثل: العلم باللغة العربية، والعلم بالكتاب والسنة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه، وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية ..وهذا الأخير هو الذي ركّز عليه الإمام الشاطبي، وجعله سبب الاجتهاد؛ ولابد مع هذا كله أن يكون لديه ملكة الاستنباط، وهي تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومداركهم، ولهذا قالوا: (من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه).

وشرط آخر نبَّه عليه الإمام أحمد، وذكره ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) وهو: (معرفة الناس). وهذا أمر مهم؛ ألا يعيش المجتهد الذي يفتي الناس في برج عاجي أو صومعة منعزلة، ويصدر أحكاماً بعيدة عن الواقع، أو يطبق أحكام عصر انقضى وأناس مضوا، على عصر آخر وأناس آخرين، مغفلاً هذه القاعدة العظيمة، أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال

والعرف، كما ذكر المحققون.

ويستلزم هذا اطلاع المجتهد على أحوال مجتمعه، وإلمامه بالأصول العامة لثقافة عصره بحيث لا يعيش في واد والمجتمع من حوله في واد آخر، فهو يُسأل عن أشياء، وقد لا يدري شيئاً عن خلفيتها وبواعثها، وأساسها الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي، فيتخبط في تكييفها والحكم عليها؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ـ كما يقول علماء المنطق.

والمجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى، حتى يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها.

ذكر المحقق ابن القيم أن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: مَرَّ في زمنه على جماعة من جنود التتار قد استغرقوا في شرب الخمر، فأنكر عليهم بعض أصحابه، فما كان منه إلا أن قال لهم: دعوهم في سكرهم ولهوهم، فإنما حرَّم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء!

وهذا يتمشى مع قاعدة مقررة؛ وهي السكوت على منكر ما، مخافة منكر أكبر منه، ارتكاباً لأخف الضررين، وأهون الشرين.

وهناك شرط آخر في المجتهد، وهو شرط ديني أخلاقي، وهو أن يكون عدلاً مرضي السيرة، يخشى الله فيما يصدر عنه، ويعلم أنه في فتواه في مقام رسول الله ﷺ، فلا يتبع هواه، ولا يبيع دينه بدنياه، فما بالك بدنيا غيره؟!

وإذا كان الله تعالى قد اشترط العدالة لقبوله الشهادة في معاملات الناس

فكيف بمن يشهد في دين الله، ويتحدث عن الله بأنه أحل كذا، وحرم كذا، وأوجب كذا، ورخص في كذا.

وهذه الشروط العلمية التي ذكرناها إنما يجب توافرها في حق المجتهد المطلق، أي: الذي يجتهد في جميع أبواب الفقه ومسائله؛ أما المجتهد الجزئي فيكفيه أن يحيط من العلم بما يتعلق بمسألته، بعد أن تكون عنده المؤهلات العلمية العامة، بناء على أن الاجتهاد يتجزأ، وهو القول الراجح عند الأكثرين.

فيستطيع أستاذ الاقتصاد أن يجتهد في مسألة ما في مجال تخصصه، إذا أحاط بكل ما ورد فيها من نصوص، وما يتعلق بها من اجتهادات، إذا كان لديه المعرفة بأصول الاستدلال وقواعد التعارض والترجيح وغير ذلك.

*** ثارت مناقشات كثيرة حول قضية الاجتهاد في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى ظهور بعض الاجتهادات المنحرفة في هذا السبيل، وما دام الأمر كذلك فلابد من وضع ضوابط تجب مراعاتها في الاجتهاد الشرعي المعاصر؛ حتى يمكن للمسلمين التعرف على هذه الاتجاهات ونبذها. فما هذه الضوابط في رأيكم؟**

ـ الضوابط التي ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر أستطيع أن أجملها في هذه النقاط:

البعد عن منطقة (القطعيات) فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنياً من الأحكام، ولا يجوز لنا أن ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون أن يحولوا القطعي إلى ظني، والمحكم إلى متشابه ... وبذلك لا يبقى لنا معول نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه.

وكما لم نجز تحويل القطعي إلى ظني، يجب ألا نحول الظني إلى قطعي، ونزعم الإجماع فيما يثبت فيه الخلاف .. فلا يصح أن نشهر سيف الإجماع في وجه كل مجتهد، كما فعل معاصروا ابن تيمية في اختياراته واجتهاداته، مع أن الإمام أحمد قال: (من ادَّعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه: لعل الناس اختلفوا وهو لا يدري).

أخشى ما أخشاه هو الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام، ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلط، وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل، في غفلة من أهل الحق الأصيل، الذي لدى المسلمين.

لهذا يجب رفض ذلك النوع من الاجتهاد ـ إن صح أن يسمى اجتهاداً ـ وهو اجتهاد (التبرير للواقع) خاصة إذا كان فيه إرضاء للسلطة الحاكمة، واجتهاد (التقليد للآخرين) كاجتهاد الذين يحاولون منع الطلاق وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الربوية .. وغيرها.

يجب أن يتحرر المجتهد من الخوف بكل ألوانه، الخوف من سلطان المتسلطين من الحكام، الذين يريدون فتاوى جاهزة دائماً تبرر تصرفاتهم، وتضفي الشرعية على أعمالهم ... والخوف من سلطان الجامدين المقلدين من العلماء، الذين يشنون الغارة على كل اجتهاد جديد، وهم الذين كانوا وراء سجن ابن تيمية ومحنه المتتابعة، فقد كانت محنته رحمه الله منهم لا من السلاطين.. وأن يتحرر من الخوف من سلطان الجماهير والعوام الذين يستطيع هؤلاء المقلدون أن يثيروهم على كل رأي مخالف لما ألفوه.

يجب أن نفسح صدورنا للاجتهاد وإن خالف ما نشأنا عليه من آراء، وأن نتوقع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعاً؛ لأنه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأ هو الصواب بعينه، ورب رأي رفضه جمهور الناس يوماً، ثم أصبح بعد ذلك هو الرأي المقبول والمرتضى، وليس في الإسلام سلطة (بابوية) تقول: هذا الرأي صواب فيغدو صواباً، ويستحق البقاء، وذلك خطأ فيحذف من الوجود، ويحكم علية بالإعدام(١) .

*** هناك قضايا معاصرة يحتاج المسلمون فيها إلى فقه متجدد يحل لهم مشكلاتهم.. ما هي أهم هذه القضايا، وكيف ترى هذه الأمور داخل إطار العملية الاجتهادية؟**

ـ نظراً لتغير الحياة عما كانت عليه في الأعصار الماضية، وتطور مجتمعات اليوم تطوراً هائلاً في الأفكار والسلوك والعلاقات، فإن عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلى الاجتهاد.. وذلك بعد (الثورة البيولوجية) و (الثورة التكنولوجية) التي يشهدها العالم، وكان من جرائها أن طرحت قضايا جديدة كل الجدة مثل: أطفال الأنابيب، وشتل الجنين، وبنوك الأجنة المجمدة، والتحكم في جنس الجنين، وزرع الأعضاء، ونقل الدم .. وما جدَّ في العلاقات الدولية والأنظمة المالية والاقتصادية من أشياء لم يعرفها السابقون، أو عرفوا بعضها في صورة مصغرة جداً.

فهذه وما شابهها تقتضي اجتهاداً جديداً، وهو ما نسميه (الاجتهاد الإنشائي) أي: الذي يُصدر فيه المجتهدون حكماً جديداً، وإن لم يتقدم من قال به

---

(١) انظر: فصل (معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم) من كتابنا: (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) نشر دار القلم الكويت.

من فقهائنا السابقين، و لم ينص عليه أحد؛ مثل زكاة العمارات والمصانع والأسهم والسندات والرواتب، واعتبار الذهب وحده أساس نصاب النقود، وإيجاب زكاة الأرض المستأجرة على كل من المالك والمستأجر: يزكي المستأجر الخارج من زرع أو ثمر .. طارحاً منه الأجرة؛ لأنها دَيْنٌ عليه، ويزكي المالك الأجرة ..

وهناك اجتهاد آخر أسميه (الاجتهاد الانتقائي)، وهو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم(١)، مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، وأليق بظروف العصر؛ وقد يكون الانتقاء داخل المذاهب الأربعة، مثل ترجيح مذهب أبي حنيفة في إيجاب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وترجيح مذهب الشافعي في إعطاء الفقير كفاية العمر، وترجيح مذهب مالك في إبقاء سهم المؤلفة قلوبهم...

وقد يكون الانتقاء من خارج المذاهب الأربعة: فالأئمة الأربعة ـ على جلالتهم وفضلهم ـ ليسوا كل الفقهاء، فهناك من عاصرهم من نظرائهم ومن يمكن أن يكون قد تفوق عليهم، وهناك من سبقهم من شيوخهم، وشيوخ شيوخهم من فقهاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممن هم أفضل منهم بيقين.

فلا حرج في الأخذ بمذهب أحدهم ترجح لدينا باعتبارات شرعية كالأخذ بمذهب عمر رضي الله عنه في التضييق في زواج الكتابيات إذا خيف منهن على نساء المسلمين أو الذرية، أو خيف عدم التدقيق في شرط الإحصان: المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿**والمُحصَنَاتُ مِنَ الذِينَ أُوتو الكِتابَ**...﴾ [المائدة: ٥] أي: العفيفات منهن، أو الأخذ بمذهب عطاء في

(١) انظر: كتابنا (شريعة الإسلام) كيف نختار من تراثنا الفقهي ص (١١٠) ط. المكتب الإسلامي بيروت.

إيجاب المتعة لكل مطلقة، أو الأخذ بمذهب بعض السلف في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب الشديد، وهو ما فسروا به حديث: «لا طلاق في إغلاق»(١) أو مذهب بعضهم في إيقاع طلاق الثلاث بلفظة واحدة أو في مجلس واحد، طلقة واحدة رجعية فقط، وهو ما أفتى به ابن تيمية وابن القيم، ومثله: عدم إيقاع الطلاق البدعي: أي الطلاق في حالة الحيض، وكذلك الطلاق إذا أريد منه الحمل على شيء أو المنع منه، فيعامل معاملة اليمين، وفيه كفارة يمين ..

ونحو ذلك الأخذ بمذهب بعض السلف في وجوب الوصية لمن لا يرث من الأقربين، وعلى أساسه قام في مصر وغيرها قانون (الوصية الواجبة) للأحفاد إذا مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياة والديهم، فلهم نصيب الوالدين بشرط ألا يزيد على الثلث، من باب الوصية، لا من باب الميراث.

ومن ذلك ما رجحه العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر من الإفتاء بمذهب عطاء وطاووس من التابعين، في جواز رمي الجمرات قبل الزوال في الحج، تيسيراً على الناس، ورفعاً للحرج والمشقات الهائلة، التي يتعرض لها الناس من الزحام حول المرمى، إلى حد الهلاك تحت الأقدام.

والاجتهاد الذي نحتاج إليه في عصرنا هو «الاجتهاد الجماعي» الذي يقوم في صورة مجمع فقهي عالمي، يضم الكفايات العلمية العالية، ويصدر أحكامه بعد

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/٢٧٦، وأبو داود في كتاب الطلاق (٢١٩٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٦)، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٧٠)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ٢/١٩٨ وقال الذهبي: كذا قال ومحمد بن عبيد لم يحتج به، وقال أبو حاتم: ضعيف.

دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، بعيداً عن ضغط الحكومات، وضغط العوام.

ومع هذا أؤكد أنه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات متأنية مخدومة.

*** يتهم بعض الدعاة إلى الإسلام أحياناً بأنهم أنصار للجمود والتشدد، ومعاداة أي تجديد .. فهل يرتبط هذا بحقيقة واقعة، أم أنه يرتبط برغبة أخرى خفية؟ وهل لنا أن نتعرف على الموقف الصحيح للدعاة من قضية التجديد؟**

ينقسم الناس بشأن التجديد إلى أصناف ثلاثة:

١ ــ أعداء التجديد الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأول للآخر شيئاً! وشعارهم المرفوع: ليس في الإمكان أبدع مما كان!.

وهم بجمودهم يقفون في وجه أي تجديد: في العلم، في الفكر، في الأدب، في الحياة، فما بالك بالدين؟! إن مجرد كلمة (التجديد) بالنسبة للدين يعتبرونها هرطقة.

وفي مجال الدين وجدت فئتان ينتهي موقفهما إلى (تجميد الإسلام) تحدثت عنهما في بعض ما كتبته في مجلة (الأمة) بمناسبة القرن الخامس عشر، وهما: فئة (مقلدي المذاهب) المتعصبين لها، الذين يرفضون أي خروج عليها، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هذا العصر، إلا في إطار ما قررته مذاهبهم وحدها، بل في حدود ما حرره المتأخرون من علماء المذهب، وأفتوا به؛ فلا يجوز الخروج عن الرأي المفتى به في المذهب، إلى أقوال وآراء

أخرى داخل المذهب نفسه!

والفئة الأخرى هي التي سميتها (الظاهرية الجدد) وأعني بهم الحرفيين الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص، ولا يمعنون النظر إلى مقاصدها، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات، ولا غرو أن تراهم يقيمون معارك حامية من أجل أمور هامشية في الدين، وهؤلاء وأولئك قوم مخلصون للإسلام، ولكنهم معه كالأم التي تسببت في موت وليدها بحبسه والإغلاق عليه خوفاً عليه من مس الشمس ولفح الهواء!

٢ ـ ويقابل هؤلاء: الغلاة في التجديد، الذين يريدون أن ينسفوا كل قديم، وإن كان هو أساس هوية المجتمع، ومبرر وجوده، وسر بقائه، كأنما يريدون أن يحذفوا (أمس) من الزمن، ويحذفوا (الفعل الماضي) من اللغة، ويحذفوا (علم التاريخ) من علوم الإنسان!

وتجديد هؤلاء هو التغريب بعينه. إن قديم الغرب عندهم جديد، فهم يدعون إلى اقتباسه بخيره وشره، وحلوه ومره .. وهؤلاء هم الذين سخر منهم الرافعي رحمه الله حين دخل معركته معهم (تحت راية القرآن) وقال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!

ورد عليهم شاعر الإسلام محمد إقبال بأن (الكعبة لا تجدد بجلب حجارة لها من أوربا)! وأشار إليهم أحمد شوقي ـ أمير الشعراء ـ في قصيدته عن الأزهر:

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عُمِّرا!
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصّرا!

وهذا الصنف والذي قبله هما اللذان شكا منهما الأمير شكيب أرسلان

حين قال في كتابه: (لماذا تأخر المسلمون؟) إنما ضاع الدين بين جامد وجاحد، ذلك ينفر الناس منه بجموده، وهذا يضلهم عنه بجحوده.

٣ ـ وبين هذين الصنفين يبرز صنف وسط، يرفض جمود الأولين، وجحود الآخرين، يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد، بل يدعو إليه، وينادي به، على أن يكون تجديداً في ظل الأصالة الإسلامية، يفرق بين ما يجوز اقتباسه، وما لا يجوز، ويميز بين ما يلائم وما لايلائم.

إنه يدعو إلى أخذ العلم المادي والتقني بكل ما يستطيعه مما تحتاج الأمة إليه، بشرط أن نهضم التكنولوجيا وننشئها، لا أن نشتريها ونظل غرباء عنها.

وهذا هو موقف دعاة الإسلام الحقيقيين: إن شعارهم: الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح .. الانفتاح على العالم دون الذوبان فيه.. الثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل.. التشديد في الأصول والتيسير في الفروع..

❋ بين الاجتهاد والتجديد كمفهوم معاصر صلة، فإذا كان الإسلام يعتبر الاجتهاد أداة لفهم أحكام القرآن والسنة، فهل يقبل الإسلام التجديد كما يقبل الاجتهاد؟ أم أنه ينافي طبيعة الدين الذي جاء ليضبط الحياة بعقائده وقيمه ومفاهيمه وأحكامه، أم لكل منهما مجاله الذي يعمل فيه؟

ـ أدهشني إنكار عالم فاضل نسبة التجديد إلى الدين ـ في حوار مع أحد الصحفيين ـ باعتبار أن الدين ثابت لا يتجدد ولا يتطور، ودافعه إلى هذا ـ فيما أعتقد ـ خشيته أن يفهم الناس من إطلاق كلمة (تجديد الدين) إعمال يد التغيير فيه بالحذف أوالزيادة، فأراد أن يسد الباب كلية بإنكار مطلق التجديد.

والحقيقة أن الحديث النبوي الشريف قد فصل في هذه القضية، وذلك

فيما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، بإسناد صحيح «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»(١)، وليس بعد قول رسول الله ﷺ قول، ولا بعد حكمه حكم.

وكثير من العلماء المخلصين ينكرون أشياء ثابتة؛ لسوء استخدام بعض الناس لها، وهم بهذا يعالجون الخطأ بخطأ، والمنهج السليم هو إثبات الثابت، وإعطاؤه التفسير الصحيح، ورد كل فهم أو تفسير خاطئ، أو تطبيق غير سليم.

فتجديد الدين ثابت بالنص، ولكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعاً منه، ولوناً من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري والجانب الروحي، والجانب العملي، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام، وهي: العلم والإيمان والعمل.

وأمتنا أحوج ما تكون اليوم إلى من يجدد إيمانها، ويجدد فضائلها، ويجدد معالم شخصيتها، ويعمل على إنشاء جيل مسلم يقوم في عالم اليوم بما قام به جيل الصحابة من قبل، وهو الذي سميناه (جيل النصر المنشود). وقد بدأ هذا التجديد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، من أمثال: حسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، وأبي الأعلى المودودي رحمهم الله، وعلى من بعدهم أن يكملوا المسيرة ويصححوها حتى يتم الله نوره...

* **للحديث الشريف: «إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه**

---

(١) صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» رقم (١٨٧٤) ط١٠، والحديث سبق تخريجه.

الأمة من يجدد لها دينها» أهمية في القضية، فماذا تعني كلمة (مَنْ) كما وردت في الحديث وهل تظل عملية ترقب المسلمين لفرد مجدد ملازمة لتفكير المسلم في بداية أو نهاية كل قرن هجري، في ظل الفهم الإسلامي لدور الجماعة في حياة الفرد يبدو أنَّ مفهوم الحديث يحمل المسلم مهمات وتبعات في إطار تجديد أمر الدين؟..

ـ هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، والطبراني في الأوسط: يمد الأمة بشعاع قوي من الأمل، يطرد عنها ظلام اليأس، ويبعث فيها الروح والأمل في أن الله لا يدعها طويلاً لأنياب الضعف حتى تفترسها، ولا لدخان الهمود حتى يخنقها، ولا لمخالب التمزق حتى تقتلها، بل يهيئ لها بين قرن وآخر، من يجمعها من شتات، ويحييها من موات، ويوقظها من سبات، وهذا بعض معاني التجديد، فهو يجددها بالدين، ويجدد بها الدين.

وقد فهم جل شراح الحديث ـ كما تبين ذلك من الدراسة السابقة ـ أن المراد بـ (من) يجدد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخلقية والعملية ما يجدد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة، عن طريق علم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير، وهذا ما جعلهم يحاولون تحديد هذا (المجدد) على رأس كل قرن، فاتفقوا حيناً، واختلفوا حيناً آخر؛ فقد اتفقوا على أن مجدد المئة الأولى: خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز .. ومجدد المئة الثانية: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومجدد المئة الخامسة: أبو حامد الغزالي، ومجدد المئة السادسة: ابن دقيق العيد، واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافاً شاسعاً.

وأرى أن (مَنْ) في الحديث، وفي لغة العرب عامة تدل على الجمع، كما تدل على المفرد، وهي هنا تدل على الجمع كذلك، فمن يجدد الدين في كل قرن ليس بالضرورة فرداً معيناً، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الولاة، ومنهم القواد، ومنهم المربون .. وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عدد من البلاد، وقد يعمل كل منهم وحده في مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم فيما يشبه الرابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرى في المجال الاقتصادي، وخامسة في المجال السياسي، ولا مانع من تعدد هذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد، على أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، أعني: أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض لا أن ينكر بعضها على الآخر، أو يعوق بعضها بعضاً فيؤدي ذلك إلى ضعفها جميعاً وقوة أعدائها.

إن ربط التجديد بفرد واحد فذّ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه، هذا سر تعلق الجماهير بفكرة (المهدي المنتظر) والذي أراه أن يُربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال إذن متى يظهر المجدد للدين؟ بل يكون: ماذا أعمل لتجديد الدين؟

*** في عالمنا الإسلامي ارتبط التجديد والمجددون باتجاهات مختلفة،**

ودعاوى باطلة من علمانية، أو إلحاد خفي، لتجريد المسلمين من حقيقة دينهم، فهل هذا التجديد، وهؤلاء هم المجددون؟

تسمية هؤلاء بـ (المجددين) تسمية خاطئة، هؤلاء (مبددون) لامجددون؛ لأنهم لا يمتون إلى التجديد الحقيقي بصلة، فتجديد شيء يعني العودة به إلى ما كان عليه عند بدايته وظهوره لأول مرة، وترميم ما أصابه من خلل على مر العصور، مع الإبقاء على طابعه الأصيل، وخصائصه المميزة، هذا ما نصنعه في أي قصر أو بناء أثري عريق نريد تجديده، فلا نسمح بتغيير طبيعته، وتبديل جوهره، أو شكله أو ملامحه، بل نحرص كل الحرص على الرجوع به إلى عهده الأول، أما إذا هدمناه وأقمنا مكانه بناء شامخاً على الطراز الحديث، فهذا ليس من التجديد في شيء.

والذين أشرت إليهم في سؤالك هم من هذا النوع الذي يريد هدم (الجامع) القديم ليقيم على أنقاضه (كنيسة) حديثة، بكل مقوماتها وخصائصها، إلا أنه كتب عليها اسم (جامع)!

والذي سمى هؤلاء (بمجددين) إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصرين، وتسميتهم الحقيقية (عبيد الفكر الغربي)، فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل!

ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، وكلهم

فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله؛ وقد كشف زيف هؤلاء من أدعياء التجديد أستاذنا الدكتور محمد البهي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)(١).

المجدد الحقيقي هو الذي يجدد بالدين للدين، أما من يريد تجديد الدين من خارجه، أي: بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة، ويجدده لمصلحة الغرب أو الشرق فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق...

(١) لمزيد من المعرفة بهذا الموضوع راجع فصل: (أصالة لا رجعية، وتحديث لا تغريب) من كتابنا (بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين) نشر مؤسسة الرسالة. بيروت

الإسلام والتطور

أيسلم التطور أم يتطور الإسلام؟

مما لاخلاف عليه أن حياة الإنسان فوق هذا الكوكب تتغير وتتطور من حال إلى حال، يتسع في بعض المجالات هذا التطور، ويضيق في أخرى.

وأوسع مجال للتطور، إنما هو في الأشياء التي يتسخدمها الإنسان، من مطعم، وملبس، ومركب، ومسكن، وسلاح، وآلة، ونحو ذلك.

ونستطيع أن نضرب مثلاً واضحاً بوسائل النقل والموصلات:

فقد كان الإنسان يمشي إلى غرضه على قدميه، ثم استطاع أن يستأنس بعض الدواب ليستخدمها في الركوب والحمل كالبعير والحصان والحمار، ثم اهتدى إلى صنع سفينة تجريها الرياح في البحر، وصنع عربة تجرها الدابة في البر، وظل آلاف السنين حتى هدي إلى صنع العربة التي تدار بالبخار أو بغيره من القوى المحركة، ثم صنع الطائرة التي قربت العالم بعضه ببعض حتى كأنه قرية واحدة، وأخيراً الصاروخ ومركبة الفضاء التي استطاع بها أن يصعد إلى كوكب القمر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسائل إشارة خاطفة، ولكن لها دلالتها وإيحاؤها حين قال: ﴿**وَالخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ لتَركَبوهَا وزينَةً ويَخلُقُ مَا لاَ تَعلمُونَ**﴾[النحل: ٨].

وبجوار هذا النوع من التطور يوجد تطور آخر في عالم المعاني والأفكار،

وفي العادات والتقاليد وفي المثل والأخلاق، والتطور هنا قد يحمد كما قد يذم؛ لأنه ليس دائماً في مصلحة الإنسان، فقد يرقى به حتى يدنو من أفق الملائكة، وقد يهبط به حتى ينزل إلى درك الحيوان.

والسؤال الذي يطرح هنا: ما موقف الإسلام من التطور؟ هل يقبله ويرحب به، أم يرفضه ويقاومه؟

مواقف الناس من التطور

ولكي يتضح لنا موقف الإسلام جلياً من هذا الأمر؛ ينبغي علينا أن نبين أن هناك مواقف ثلاثة وقفها الناس من التطور:

موقف الرفض المطلق:

الأول: موقف الرفض المطلق لكل تغيير أو تجديد، في أي جانب من الحياة ـ علمياً كان أو عملياً مادياً أو معنوياً ـ وإبقاء كل قديم على قدمه، ومقاومة كل جديد، من أي مصدر جاء، وعلى أي صورة ورد.

وهذا هو موقف الكنيسة الغربية في العصور الوسطى المسيحية، فقد تبنت أفكاراً ونظريات في علوم الجغرافيا والفلك والطب والإحياء وغيرها، وأضفت عليها من القداسة ما جعلها جزءاً من الدين نفسه، ومثل ذلك ما اعتنقته من أفكار وتقاليد صبغتها بصبغة الدين، فلم تعد تسمح لأحد أن يخالفها أو ينتهي به بحث حر إلى مخالفتها، وويل ثم ويل لمن حدثته نفسه بمخالفتها!

وقد ذكر الأستاذ الإمام محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) من مواقف الكنيسة ورجالها ما يثير العجب والدهشة.

قال دي رومنيس: إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا شاء، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء؛ فجلب إلى روما وحبس حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار!

وأظهر (بلاج) رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم، أي أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالأكل من الشجرة، فقامت لذلك

ضوضاء، وارتفعت جلبة، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمـر إمـبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك الاعتقاد.

إن القول بكروية الأرض قد أحدث اضطراباً شـديداً في عـالم المسيحية، مع أن المسلمين قد عرفوه منذ أول الخلافة العباسية، و لم تتحرك له شعرة مـن بدن، بل صار يذكر في كتب التفسير والتوحيد وغيرها بلا حرج.

اكتشف بعض الأميركان تخدير المرأة عند الـولادة، حتـى لا تُحـس بـألم الطلق، فقامت قيامة القسيسين؛ لأنه يخلص المرأة من اللعنة أو العقوبة الأبديـة التي سجلت عليها في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الثالث. ففيه: وقـال ـ أي الرب ـ للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولاداً).

وفي الآستانة اكتشف المسلمون طريقة طبيّة للحقن تحت الجلد ثم نقلتهـا إلى أوروبا ـ سنة ١٧٢١م ـ امرأة تسمى ماري موناجو، فثار رجال الكهنوت وعارضوا في استعمالها، وعادت هذه الشدة في المعارضة عند اكتشاف طريقـة التطعيم ضد الجدري.

أنشئت محكمة التفتيش في أوروبا لمقاومة العلم والفكر الحر، عندما خيف ظهورها بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، وبخاصة في جنـوب فرنسـا وإيطاليا، وكان الذي طلب إنشاءها هو الراهب (تور كماندا).

قامت هذه المحكمة الغربية بأعمالها حق القيام، ففـي ١٨ سـنة، مـن سـنة ١٤٨١م إلى سـنة ١٤٩٩م، حكمـت علـى ١٠٢٢٠ عشـر آلاف ومـائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحيـاء، فـأحرقوا، وعلـى ٦١٨٦٠ بالشـنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى ٩٧,٠٢٣ بعقوبـات مختلفـة فنفـذت ثـم

أحرقت كل توراة بالعبرية.

هذا كان موقف الكنيسة، ولكن التطور كان أقوى منها، فإن الشرارة التي انتقلت من الشرق المسلم إلى الغرب المسيحي، ظلت تتسع وتعلو، حتى أصبحت ناراً هائلة لايقف دونها شيء، فلا غرو أن ثارت الجماهير الهائجة على الكنيسة التي وقفت مع الجهل ضد العلم، ومع الخرافة ضد الفكر، ومع الملوك والنبلاء ضد الشعب، وقالت الجماهير قولتها:

(اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)!

موقف الخضوع المطلق للتطور:

والموقف الثاني: على نقيض الموقف السابق، فهو موقف الخضوع المطلق، والمسايرة العمياء لكل تغيير وكل جديد، دون تمييز بين ما يجوز وما لايجوز، وما ينبغي وما لا ينبغي، بناء على فكرة غربية مؤداها: أن اللاحق خير من السابق، وأن أي جديد خير من أي قديم، وأن مولود اليوم خير من مولود الأمس، وأكثر من ذلك أنهم لا يقنعون بمجاراة التطور بل ينادون بتطوير كل شيء، وتغيير كل القيم والفضائل والتقاليد والشرائع، يجب قلب الحياة رأساً على عقب.

يمثل هذا الموقف في مجتمعاتنا فريقان من الناس:

فريق الأذناب المقلدين للمعسكر الغربي الذين هالهم صنم الحضارة الغربية، فبرروا كل ما تجيء به، وتحمسوا له، ودعوا إليه، باسم التطور والتجديد، ولو كان هو العري والانحلال، والإلحاد والإباحية، على حين بدأ الغربيون أنفسهم يراجعون موقفهم، وينقدون حضارتهم، ويغيرون مفاهيمهم

في كثير من الأمور.

وهؤلاء هم الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام المرحوم مصطفى صادق الرافعي فقال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!! وقال فيهم شوقي في قصيدته عن «الأزهر»:

لا تَحْذُ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ماضٍ في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا!

والفريق الثاني (هم الماركسيون) الذين يقولون بحتمية التطور، وينادون بأن ما يأتي به التطور أفضل ـ ولابد ـ مما كان قبله.

وهم يتحدثون دائماً عن الجانب المتطور من حياة الإنسان، ويغفلون الجانب الثابت فيها.

ولا شك أن الحياة البشرية تتعرض لكثير من التغير والتطور، ولكن جل هذا التطور إنما يتعلق بما حول الإنسان أكثر من تعلقه بالإنسان ذاته، أما جوهر الإنسان فهو هو.

فآدم الذي استدرجه الشيطان بغريزة حب الخلود والبقاء إلى الأكل من الشجرة، لا يزال ماثلاً في أبنائه الذين تدفعهم نفس الغريزة إلى مخالفات أُخر.

وابن آدم الذي حسد أخاه فقلته بحجر أو نحوه، ثم حار في دفنه حتى علمه غراب يبحث في الأرض كيف يوارى سواة أخيه، لا يزال إلى اليوم يحسد ويقتل، وإن تطورت أدوات القتل، وتنوعت في يديه، وأصبح قادراً

على إذابة الجثة ببعض الحوامض والمحلولات الكيميائية حتى لايبقى لها أثراً!!

والوازع الأخلاقي الذي جعل آدم بعد خطيئته يندم وينوب ويستغفر قائلاً: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن مِنَ الخاسِرين**﴾[الأعراف: ٢٣]، وهو الوازع الذي تمثل بأجلى صورة في خبر ابني آدم حين قال لأخيه: ﴿**لئنْ بَسَطتَ إليَّ يدَكَ لِتقتُلَني ما أنا بباسِطٍ يدِيَ إليكَ لأقتُلكَ إنّي أخافُ ا لله ربَّ العالَمينَ**﴾[المائدة: ٢٨]، وتمثل ـ بصورة ما ـ ندم القاتل بعد دفن أخيه، هذا الوازع لا زال قائماً في فطرة البشر وإن وطئت أقدامهم سطح القمر، على تفاوت بينهم.

إن الدوافع الفطرية في الإنسان لم تتغير، وإن تغيرت بعض طرائق إشباعها. كان الإنسان يأكل الطعام نيئاً كالحيوان والطير، ثم تعلم أن يطبخه على نار وقودها الحطب أو الخشب أو الفحم، ثم اخترع موقداً بالزيت ثم بالكهرباء، ولكنه على كل حال بقي إنساناً يأكل ويشرب، ويجوع ويشبع، ويظمأ ويرتوي، ويحس بالتوتر والانفعال إذا جاع أو عطش، وبالراحة واللذة إذا شبع وارتوى.

والقيم الدينية والخلقية الأصيلة من الشعور بالحاجة إلى ا لله، واللجوء إليه عند الشدة والندم على الخطيئة، وحب الصدق والأمانة والفضيلة، وكراهية الرذيلة والكذب والخيانة، لا يزال لها وزنها وقيمتها في حياة البشر وسلوكهم، وإن غشيتها الغواشي عند بعض الناس، أو أدركها الرين والصدأ.

فليس لنا أن نبالغ في التطور الذي أدركه الإنسان، فإنما هو تطور في محيط الإنسان، لا في جوهر الإنسان، تطور فيما يستخدم الإنسان لا في حقيقة الإنسان.

صحيح أن معرفة الإنسان بظواهر الكون وما فيه من أشياء قد تغيرت واتسعت، ولكن هذا لم يغير جوهر الإنسان.

الموقف الوسط وهو موقف الإسلام:

والموقف الثالث: هو الموقف الوسط، موقف التميز والاعتدال بين المتزمتين والمتحللين، بين الذين يريدون أن يجمدوا الحياة، ويقفوا في سبيل نموها وتقدمها، والذين يريدون أن يجعلوها فوضى، لا تحكمها قيم ولا عقائد، ولا تضبطها فضائل. ولا شرائع إنه موقف يواجه التطور بالحكمة، بل يوجهه بالحق، بل يدفع إلى التطور النافع، ويخلقه ويغذيه بالوقود.

إنه موقف الإسلام الصحيح، الذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه.

الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والآلات.

الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على الأخلاقيات والدينيات، والمرونة في الماديات والدنيويات.

نجد هذا الثبات في النصوص المحكمة، القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالتها، كما نجد المرونة في النصوص الظنية في ثبوتها، والظنية في دلالتها، وفي منطقة الفراغ التي تركتها النصوص لاجتهاد المجتهدين، رحمة بنا، وتيسيراً علينا.

نجد هذا الثبات في العقائد الرئيسية، والفرائض الأساسية، وأمهات الفضائل وأصول المحرمات، وكليات الشريعة، ونحو ذلك مما لايختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأحوال، كما نجد المرونة في الأحكام الفرعية الجزئية التي تتسع لأكثر

من نظرة، وأكثر من اجتهاد، ولم يضيق الله فيها على عباده، فمن اجتهد فيها فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر، وهي التي قال فيها فقهاؤنا: إن الفتوى فيها تتغير بتغير المكان والزمان والعرف والحال.

ونجد مرونة أكثر وأكثر في أمور الدنيا: الأمور التقنية والفنية التي تتعلق بالوسائل والأساليب، فهذه هي التي قال فيها الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»(١).

وهذه الأمور يجب أن يتقنها المسلمون، ويتفوقوا فيها، ولا حرج عليهم أن يقتبسوها من غيرهم إن لم تكن عندهم.

لقد كان الرسول ﷺ يخطب على جذع نخلة في المدينة فلما كثر المسلمون، واستقر لهم الأمر، استدعي له نجار رومي، فصنع له منبراً من ثلاث درجات، فكان يخطب عليه ولم يقل: هذا من صنع رجل رومي فلا أستعمله.

وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، فأعجب برأيه ونفذه، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس، لا نأخذ به.

وكذلك جاء أصحابه من بعده، فسنوا أنظمة وأعمالاً لم تكن في عهد الرسول ﷺ مثل تدوين الدواوين، وتمصير الأمصار، وجمع القرآن في مصاحف، وتوزيعه على الأقاليم، وتخصيص أناس لوظيفة القضاء وحدها، وإدخال نظام البريد، وغير ذلك من الأمور التي لا ريب في فائدتها، وحسن

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة وأنس في كتاب الفضائل (٢٣٦٣)، وانظر: صحيح الجامع برقم (١٤٨٢) الطبعة الثانية، طبع المكتب الإسلامي.

أثرها، والتي لم يضق هذا الدين بها صدراً، كيف وقد سنها الراشدون المهديون الذين تعد سنتهم جزءاً من هذا الدين، يهتدى بها، ويعض عليها بالنواجد؟!

لقد شاء الله أن يتضمن هذا الدّين كلمات الله الأخيرة للبشرية، بعد أن بلغت أشدها، واستحقت أن ينزل عليها الرسالة العامة الخالدة؛ فلا عجب أن أودع فيه من السعة والتيسير والمرونة ما يواجه به التطور، ويصلح لكل بيئة، وكل أمة، وكل جيل، بل أودع فيه من القيم والأفكار والأصول الفكرية والخلقية والتشريعية ما يدفع إلى النمو والحركة والرقي، وما يكفي لخلق حضارة ربانية إنسانية تلتقي فيها الدنيا والدين، والعلم والإيمان، والتمدن والأخلاق.

إنه لا يرفض كل تطور ولو كان يحمل في ثناياه العلم والحكمة والحق والخير، ولا يقبل كل تطور ولو كان يحمل في تياره الفساد والانحراف والسقوط، وإنما يرد كل أمر إلى الكتاب الذي أنزله الله بالحق والميزان؛ فإن الله لم يدع خلقه هملاً، ولم يتركهم سدى، بل أعطاهم المعيار الذي به يقوّمون كل شيء في الحياة.

إن الإسلام يرفض الجمود ويدعو إلى الحركة، والحركة الدائبة المستمرة، ولكنه يريدها حركة هادفة عاقلة، لا حركة هوجاء مخربة، يريدها حركة النهر الدافق في مجراه الأمين، لا حركة السيل المتهدر المنطلق بلا مجرى ولا ضوابط ولا حدود. إن النهر والسيل كلاهما يجري ويتحرك بماء عذب، ولكن النهر يشيع الحياة والخضرة والبركة حيثما جرى، والسيل يعقب الدمار

والخراب، ويهلك الزرع والضرع حيثما سار.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يتحرك ويعمل، بشرط أن تكون حركته إلى هدف يليق بإنسانيته الكريمة على الله، وأن تكون في مدار مأمون، يأمن فيه أن يتحطم أو يحطم. إنها كما قال الشهيد سيد قطب بحق: (الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت).

إن الإسلام يقبل التطور العاقل الصالح الذي تحكمه قيم الحق والخير والفضيلة، وتضبطه موازين العدل الذي أنزل الله به كتابه وبعث به رسوله، أما الانطلاق العربيد فهو كالجمود البليد، كلاهما مرفوض في نظر الإسلام.

متى يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر:

وإنما يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر والضرر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يجمّد ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم وتصبح كالماء الراكد الآسن، الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات.

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فرأينا كيف أغلق باب الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتتان في الحرب وغيرها، وضربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء وأصبح المثل السائر: ما ترك الأول للآخر شيئاً!

وليس في الإمكان أبدع مما كان! على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة ـ التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي ـ تستيقظ وتنهض

وتتطور، ثم تنمو وتتقدم، ثم تزحف غازية مستعمرة، والمسلمون في غمرة ساهون، وفي غفلة لاهون.

الثاني: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث من أبناء المسلمين فئة يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور. يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلل من الفضيلة، كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد (التطور).

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها؛ لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أن يصبح الدين خاضعاً لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوج إذا اعوجت، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان: أن يوجهها ويحكمها لا أن توجهه وتحكمه، وأن يخضعها لمثله وهداه، لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها.

ومن هنا نقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!!

فالإسلام حاكم، والتطور محكوم عليه.

عبيد التطور لا يقفون عند حد:

ثم إن عبيد التطور لايقفون عند حد، ولا يقبلون تنازلاً حتى يطالبونا بثان وثالث، وسلسلة من التنازلات لا تتناهى! وهم إذا قبلوا الإسلام فإنما

يريدونه إسلاماً من صنع أيديهم وأفكارهم!

إنهم يقولون: لا نأخذ بأقوال الأئمة ولا الفقهاء ولا الشراح والمفسرين، فإنها آراء بشر مثلنا، ولا نأخذ إلا من الوحي المعصوم.

فإن وافقتهم على ذلك ـ افتراضاً ـ قالوا: إنما نأخذ ببعض الوحي دون بعضه، نأخذ القرآن ولا نأخذ بالسنة! فإن فيها الضعيف والموضوع والمردود، أو نأخذ بالسنة المتواترة، ولا نأخذ بسنن الآحاد!

فإن سلم لهم ذلك قالوا في جراءة ووقاحة: القرآن نفسه إنما كان يعالج أوضاع البيئة العربية المحدودة، وشؤون المجتمع البدوي الصغير، فلابد أن نأخذ منه ما يليق بتطورنا وندع منه ما ليس كذلك!!

فإذا قال القرآن: ﴿**إِنَّمَا حرَّم عليكُمُ الميتَةَ والدَّمَ ولحمَ الخِنزِيرِ**﴾[البقرة: ١٧٣، والنحل: ١١٥]، وإذا سمى لحم الخنزير (رجساً) قالوا: إنما قال القرآن ذلك في خنازير كانت سيئة التغذية، أما خنازير اليوم فليست كذلك!!

وإذا قال القرآن في الميراث: ﴿**للذَّكرِ مِثلُ حظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[النساء: ١١]. قالوا: إنما كان ذلك قبل أن تخرج المرأة للعمل، وتثبت وجودها في ميادين الحياة المختلفة، أما اليوم فقد أصبح لها شخصيتها واستقلالها الاقتصادي؛ فلزم أن ترث كما يرث الرجل، ولم يعد مجال للتفرقة بين الجنسين!!

وإذا قال القرآن: ﴿**إنَّما الخمرُ والميْسِرُ والأنصابُ والأزْلامُ رجسٌ مِن عملِ الشَّيطانِ فاجتنبُوهُ**﴾[المائدة: ٩٠]. قالوا: إنما حرم القرآن ذلك في بيئة حارة، ولو نزل القرآن في بيئة باردة، لكان له موقف آخر!!

ومعنى هذا أنهم ينسبون إلى الله تعالى الجهل بأحوال خلقه، وأنه لايعلم منها إلا ما هو واقع، وأما ما يخبئه الغد وما يضمره المستقبل، فلا يعلمه ولا يحسب حسابه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

إن الإصلاح الحقيقي: أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شؤون الحياة فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان لا الأغرار المقلدين ـ والإسلام يشد أزرنا في ذلك بما أطلق فينا من قوى الفكر والعمل، وما شرع لنا من الاجتهاد والجهاد، وما أوجب علينا من التماس الحكمة أنى وجدت ـ نتفهم كذلك ما يجب أن يبقى ثابتاً راسياً من القيم، والعقائد، والمفاهيم، والأخلاق، والآداب، والشرائع، التي تزول الجبال الشم ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجهه: نعيش عصرنا، ونرضي ربنا، فنفوز بالحسنيين، ونربح الدنيا، ولا نخسر الدين، ونظفر برضوان الله، وإعجاب العقلاء من الناس.

مكانة الإنسان في الإسلام

كتاب باسم (حضارة الإسلام) للمستشرق النمساوي الأصل ج١ - فون جرو نيباوم ... ترجمه الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ضمن مشروع (الألف كتاب) الذي تشرف عليه (إدارة الثقافة العامة) بوزارة التربية والتعليم.

وفي الكتاب أخطاء كثيرة عن الإسلام في عقيدته وتشريعه وحضارته وتاريخه، وهو ما لا يمكن أن يخلو منه مستشرق لا يؤمن بالإسلام ديناً، ولا بالقرآن وحياً، ولا بمحمد رسولاً، فلابد أن يفسر هذا الدين وآثاره بما يلائم اعتقاده فيه.

وقد عقب الأستاذ المترجم على بعض هذه الأخطاء، ولكنه أولاً: لم يستوعب، وثانياً: لم يوف التعقيب حقه .. وثالثاً: فصل التعقيب عن أصله، وجعله في آخر الكتاب.

ولسنا في مقام النقد للكتاب كله الآن، وإنما نكتفي بإيراد مثل من انحراف المؤلف عن السداد مما لم يعقب المترجم عليه.

قال في (الإنسان الكامل) ص ٢٨٣:

(والإسلام منذ بداءته لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير، وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي؛ فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلاً: **﴿وَلَقَد خلَقنَا الإنسَانَ من سُلالةٍ من طِينٍ ۞ ثمَّ جعلنَاهُ نطفةً في قرارٍ مكينٍ ۞ ثمَّ خلقنَا النُّطفةَ علَقةً فخلَقنَا العلقةَ مُضغةً فخَلقنَا المُضغةَ عِظامَاً فكسَونا**

العِظامَ لحمَاً ثمَّ أنشَأناهُ خلقَاً آخرَ﴾[المؤمنون: ١٢- ١٤].

فليس لإنسان أي فخر في بداياته؛فهو ليس مكوناً من مادة مهينة فحسب، بل هو ضعيف عديم الحس ساعة ينحدر إلى هذه الحياة ـ ولا يحفظه في وجوده المحفوف بالخطر إلا إرادة الله ... وهو غرض لسهام الأمراض والآلام، وهو يكابد الجوع والعطش شاء أم لم يشأ، وهو يريد المعرفة ولكن الجهل نصيبه، وهو يريد أن يتذكر ولكنه ينسى، وإنه ليدبر ما يدبر من خطط الفكاك ولايبلغ قط حد الاطمئنان على الحياة أو المركز ..

ويتأمل الغزالي أمره قائلاً: وما نهايته إلا الموت الذي يرده إلى خمود الحس المصاحب لبداياته، والذي يعرضه للتجيف الكريه المنفر) اهـ.

وإن أدنى تأمل في مصادر الإسلام ليرد على المؤلف دعواه، أن الإسلام لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير، ويدحض استدلاله الواهن على ما ادعاه.

وقد اعتمد المؤلف في هذه النقطة ـ كما ذكر في مراجعه ـ على كلمات ذكرها الإمام الغزالي في كتاب (الكبر) من الإحياء .. ومثل هذه الكلمات التي ذكرها الغزالي لا تصلح معتمداً لتقرير مبدأ خطير يتعلق بمكانة الإنسان في الإسلام؛ فهو إنما ذكرها في بيان الطريق إلى معالجة الكبر، وفي مخاطبة المستكبرين، ولكل مقام مقال كما يقولون.

إنه يريد أن يذكر هذا المتكبر بأيام ضعفه يوم كان جنيناً في بطن أمه، بل حين لم يكن شيئاً مذكوراً؛ ليعلم أنه لا قيام له بذاته، ولا استغناء له عن ربه **﴿هَل أَتَى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهرِ لم يَكُن شيئَاً مذكُوراً ۞ إنَّا خَلقَنَا**

الإنسَانَ من نطفةٍ أمشاجٍ نبتلِيه فجعلنَاهُ سميعاً بصِيراً * إنَّا هدينَاهُ السبِيلَ إمَّا شاكِراً وإمَّا كفُوراً﴾[الدهر: ١ - ٣].

قال الغزالي بعد ذكر هذه الآيات(١) : ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً: تراباً أولاً، ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال، فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: **﴿أَوَ لم يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقنَاهُ مِن نطفةٍ فإذَا هوَ خَصِيمٌ مُبينٌ﴾**[يس: ٧٧]، **﴿وَمِن آياتِهِ أن خَلقكُمْ مِن تُرابٍ ثُمَّ إذَا أنتُم بَشرٌ تَنتشِرونَ﴾**[الروم: ٢٠].

فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة - خسة التراب وقذارة النطفة - إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمي، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر، فكان في ذاته (لاشيء) وأي شيء أخس من لا شيء، وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئاً.

هذا ما ذكره الغزالي عن الإنسان فيما اقتضاه مقام معالجة الكبر والمتكبرين، وهو لايثمر النتيجة التي انتهى المؤلف إليها.

ولو أنصف المؤلف لاستشهد بما ذكره الغزالي في مناسبات شتى، بين

---

(١) ص ٣٠٩ من كتاب الكبر، ربع المهلكات طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٤٦ هـ.

فيها مكانة الإنسان في الكون، وقيمته عند الله وخصائصه الروحية العالية، وحسبنا من ذلك ما ذكره في كتاب (المحبة) من ربع (المنجيات) من إحيائه؛ فهو بعد أن ذكر أن من أسباب المحبة المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبيه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل، قال[1] : وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة، لاترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر.

فالذي يذكر: هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله؛ وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من الصفات الإلهية .. من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلى الله تعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لايجوز أن يسطر في الكتب ـ من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي ـ في التي يومئ إليها قوله تعالى: ﴿**وَيَسأَلُونكَ عنِ الرُّوحِ قلِ الرُّوحُ مِن أمرِ رَبِّي**﴾[الإسراء: ٨٥]، إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق.

وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿**فإذا سوَّيتُهُ ونَفختُ فيهِ من رُوحِي**﴾[ص: ٧٢]؛ ولذلك أسجد له ملائكته.

---

(١) ص ٢٦٣ من كتاب المحبة، ربع المنجيات.

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جعَلناكَ خلِيفةً في الأرضِ﴾[1]؛ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة.

وإليه يرمز قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[2] حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، فشبهوا وجسموا وصوروا ـ تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: «مرضت فلم تعدني، فقال: يا رب، وكيف ذلك؟! قال: مرض عبدي فلان فلم تعده، ولو عدته وجدتني عنده»[3] .

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالى ـ يعني في الحديث القدسي ـ : «لايزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به...»[4] إلخ.

إن الآية التي استدل بها المستشرق ـ والتي بينت أطوار خلق الإنسان من

---

(١) هذه الآية من سورة (ص) الآية (٢٦) في شأن داود عليه السلام، والأولى من سورة البقرة الآية (٣٠) ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فهي في شأن أبي البشر آدم عليه السلام، وأعتقد أن الغزالي يقصد إليها.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨/٢٨٤١).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٦٩)، وانظر، صحيح الجامع الصغير ١٩١٦.

(٤) رواه أحمد في مسنده بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها ٢٥٦/٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥٠/٢: فيه عبد الواحد بن قيس بن عروة، وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين وضعفه غيره، وبقية رجاله الصحيح.

نطفة فعلقة فمضغة .. إلخ ـ لا تهدف إلى إقناع الإنسان بمهانة أصله الجسدي ـ كما يقول ـ وإنما تهدف هي وما يماثلها من آيات إلى الرد على قوم أنكروا الآخرة والبعث بعد الموت، واستبعدوا أن يحيا الإنسان بعد ما رم وبلي، فجاءت هذه الآيات تلفت أنظار منكري النشأة الأخرى إلى النشأة الأولى، وتنبه العقول الغافية إلى قدرة الله الكبير الذي خلق الإنسان من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿**وَيقولُ الإنْسانُ أَئِذا مامِتُّ لسَوْفَ أُخرجُ حيًّا * أَوَ لايذكُرُ الإنسَانُ أنَّا خلقنَاهُ مِن قبلُ ولم يكُ شيئاً**﴾[مريم: ٦٦، ٦٧]، ﴿**أو لم يرَ الإنسَانُ أنَّا خلقنَاهُ من نُطفةٍ فإذَا هوَ خَصِيمٌ مبينٌ * وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونسِيَ خلقَهُ قالَ من يُحيي العِظامَ وهيَ رميمٌ * قُلْ يُحييهَا الذِي أنشأها أوَّل مرةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ**﴾[يس: ٧٧ - ٧٩].

فهل يفهم منصف من سياق هذه الآيات تحقير الإنسان؟ وأن الإسلام لا يعترف له إلا بقليل من التقدير؟

لقد عني القرآن بالحديث عن الإنسان في عشرات من آياته، وعشرات من سوره، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي استقبله قلب رسول الله ـ وهي خمس آيات ـ لم تغفل شأن الإنسان، وعلاقته بربه: علاقة الخلق والإيجاد، وعلاقة التعليم والهداية، واختارت الآيات لفظ (الرب) لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال: ﴿**اقرَأ باسمِ ربِّك الَّذِي خلَقَ* خلَقَ الإنسَانَ مِن عَلقٍ * اقرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ * الذي علَّمَ بالقلمِ * علَّمَ الإنسانَ مالَمْ يعلَم**﴾[العلق: ١-٥].

بين القرآن في كثير من آياته علاقة الإنسان بالله، وهي علاقة القرب

القريب، الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ﴿**ولقد خلقنَا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوِسُ به نفسُهُ ونحنُ أقربُ إليهِ مِن حَبْلِ الوريدِ**﴾[ق: ١٦]، ﴿**وَإذا سألكَ عِبادِي عنّي فإنّي قريبٌ**﴾[البقرة: ١٨٦]، ﴿**فأَينَما تُوَلُّوْا فثمَّ وجهُ ا للهِ**﴾[البقرة: ١١٥]، ﴿**وَهو مَعَكُم أَينَ مَا كنتُم**﴾[الحديد: ٤].

وبين القرآن مكانة الإنسان عند العوالم الروحية العلوية، وهي مكانة إشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتطاولت إليها نفوسهم فما بلغوها: مكانة خليفة ا لله في الأرض ﴿**قَالُوا أَتجعَلُ فيها مَن يفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسبحُ بحمدكَ ونقدِّسُ لكَ قالَ إنّي أعلمُ مالا تَعلمُونَ**﴾[البقرة: ٣٠]. مكانة من علمه ا لله الأسماء كلها، وأمر ملائكته بالسجود له تحية إجلالاً ﴿**إذْ قالَ ربُّكَ لِلْملائِكة إنّي خالقٌ بشرًا مِن طِين ۞ فإذا سوَّيتُهُ ونَفَختُ فيهِ من رُوحِيْ فقَعُوا لهُ ساجِدينَ ۞ فَسَجدَ الملائِكَةُ كلُّهم أجمَعُونَ ۞ إلاَّ إبلِيسَ...**﴾[ص: ٧١-٧٤].

وكانت عاقبة عدو الإنسان الذي تمرد على أمر ربه بتحيته والسجود له هي اللعنة والطرد الأبدي قال: ﴿**فاخرُج منهَا فإنَّك رجِيمٌ ۞ وإنَّ عليكَ لَعْنَتِي إلى يَومِ الدِّينِ**﴾[ص: ٧٧-٧٨].

وبين القرآن مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض، وهو مركز السيد المتصرف، الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً ﴿**ا للهُ الذي خلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ وأَنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بهِ مِنَ الثمراتِ رزقًا لكُم وسخَّرَ لَكمُ الفُلكَ لِتَجرِيَ في البَحرِ بَأمرِهِ وسخَّرَ لكمُ**

الأنهَارَ ۞ وسخَّر لكُم الشَّمسَ والقَمرَ دائِبَيْنِ وسخَّرَ لكُم اللَّيلَ والنَّهـارَ ۞ وآتاكُم مِن كلِّ ما سَأَلتُموهُ﴾[ابراهيم: ٣٢-٣٤].

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة في الكون ـ على ما فيه من أجرام ضخام ـ؟ إنه استعداده لحمل الأمانة الكبرى: المسؤولية .. التكليف، تلك المسؤولية التي صورها القرآن تصويراً أدبياً رائعاً فقال: **﴿إنَّا عرَضنَا الأمَانَةَ علَى السَّمواتِ والأَرْضِ وَالجِبالِ فَأَبينَ أَن يحمِلنَها وأَشفَقنَ مِنها وحَمَلهَا الإنسانُ﴾**[الأحزاب: ٧٢] تلك المسؤولية التي جعلت مصير كل إنسان بيده، إما إلى جنة وإما إلى نار **﴿بلِ الإنسانُ علَى نفسِهِ بَصيرةٌ﴾**[القيامة: ١٤]، **﴿مَنِ اهتَدى فإنَّما يَهتَدِي لِنفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضلُّ عَليهَا﴾**[الإسراء: ١٥].

ذلك بعض ما ذكره القرآن عن مكانة الإنسان، وإن فيه لغناء لمن أراد الإنصاف، وحسب الإنسان شرفا هذان النداءان المباشران من الله إليه بعنوان الإنسانية: **﴿يأيُّها الإنسانُ ما غرَّك بربِّكَ الكَرِيمِ ۞ الَّذِي خلَقكَ فسوَّاكَ فعدَلكَ ۞ في أيِّ صُورةٍ ما شَاء ركَّبكَ﴾**[الانفطار: ٦-٨]، **﴿يأيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّك كدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾**[الانشقاق: ٦].